الفصل السادس

كتابات ابن أبى طى عن الدولة الأيوبية فى مصر واليمن والمغرب

أولا: كتابات ابن أبى طى عن الدولة الأيوبية فى مصر:

نواصل فى هذا الفصل دراسة كتابات ابن أبى طى عن سيرة صلاح الدين التى أوردها له «أبو شامة»، كما حفظ «ابن كثير» بعض كتابات ابن أبى طى التى اعتمدنا عليها أيضا فى هذا الفصل. وفيه تناول ابن أبى طى تاريخ حكم صلاح الدين فى مصر فى الفترة التى أعقبت سقوط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ / ١١٧١ م، والتى كان يحكم فيها مصر - «رسميا» - بصفته نائبا عن نور الدين محمود، واستمرت هذه الفترة حتى وفاة نور الدين محمود فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، ثم استقل صلاح الدين بعد ذلك بحكم مصر، وكان قد عمل بعد سقوط الخلافة الفاطمية على توسيع رقعة أملاك الدولة الأيوبية فى مصر، فوصلت جيوشه إلى النوبة، وقد اتسمت كتاباته عن تلك الأحداث بالتميز لما أورده من تفاصيل مهمة انفرد بذكر الكثير منها.

سيطرة تورانشاه بن أيوب على قلعة إيريم ببلاد النوبة:

بدأت فكرة غزو بلاد النوبة فى فترة خلافة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م)، وذلك لدعوة أهلها إلى الإسلام، وقاد الغزو «عبد الله بن سعد ابن أبى السرح» فى عام ٣١ هـ / ٦٥١ م، وخاض معهم قتالا شديدا، ولم يتمكن من فتحها، وانتهى إلى عقد هدنة معهم،تقضى بإرسال مصر الحبوب من قمح وعدس، وفى المقابل ترسل النوبة أربعمائة رأس من العبيد فى كل عام[1]. أما بالنسبة للأسباب التى دعت إلى غزو «شمس

---

(١) الكندي : الولاة و القضاة ، ص ١٢؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، ج ٥ ، ص ٣٠٩ ؛ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

الدولة تورانشاه بن أيوب» النوبة فى عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م، فقد أرجع «ابن الأثير» سبب ذلك إلى طبيعة العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود فى ذلك الوقت، وأوضح أن صلاح الدين اهتم بإضافة المزيد من الفتوحات ـ فى النوبة واليمن ـ لتأمين مركزه خاصة إذا نفذ نور الدين محمود ما كان يفكر به بشأن غزو مصر، وعجز عندئذ صلاح الدين وقواته عن إقصائه عنها، فيتنقلوا إلى هذه البلاد[1].

و قد أورد ابن أبى طى رأيا آخر انفرد به، أرجع فيه سبب الغزو إلى أسباب مباشرة تتعلق بالنوبة، فأوضح انه خرج منها فى ذلك الوقت أعداد كبيرة من السودان و العبيد،

وقاموا بالهجوم على أسوان، فاستنجد والى أسوان بصلاح الدين، فأمده لذلك بالقوات. فقال: « **{وفى هذه السنة}[2] اجتمع السّودان والعبيد من بلاد «النوبة»[3] وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموّا على قصد «أسوان» وحصارها، ونهب قراها. وكان بها الأمير «كنز الدولة»[4]، فأنفذ يُعلم الملك الناصر وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع «الشجاع البعلبكي». فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها؛ فأتبعهم الشجاع و الكنز، فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم. ورجع الشجاع إلى القاهرة[5]، و أخبر بفعال**

---

(١) الكامل، ج ٩، ص ١١٨ . وانظر أيضا : ابن سعيد : النجوم الزاهرة، ١٨٧ ـ ١٨٨؛ ابن خلدون : تاريخه، ج ٥، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧؛ القلقشندي : صبح الأعشي، ج ٥، ص ٢٧٦.

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « وفيها » . (أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ٢٠٨) .

(٣) النُّوبَةُ : بلاد واسعة في آخر جنوب مصر علي ضفتي النيل، وقاعدتها مدينة دنقلة (ياقوت : معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٧٥) .

(٤) كنز الدولة : لقب منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لأمير أسوان « أبي المكارم هبة الله » عندما ظفر بالثائر « أبي ركوة » الفار إلي بلاده في عام ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م . (ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٦ ، هامش(٢) ؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٨٣) .

(٥) اتفق المقريزي مع رأي ابن أبي طي عن أسباب غزو النوبة، وتطابقت روايته مع ما أورده ابن أبي طي حتى هذا الجزء . (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٠) .

العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد»[١].

فقرر صلاح الدين إنفاذ أخيه الأكبر شمس الدولة تورنشاه لغزو النوبة، وتمكنت قواته - كما أوضح العماد الأصفهانى وابن الأثير - من السيطرة على «قلعة إبريم» بها، وأرجع ابن الأثير سبب ملكه لها إلى أن أهلها لم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامى طاقة[٢]، وانفرد ابن أبى طى بمزيد من التفاصيل التى توضح سيطرة تورانشاه على القلعة فقال: «فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة فى عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار قاصدا بلادهم وشحَن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة وأمرها بلِحاقه إلى بلاد النوبة. وسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال، و«الكُراع»[٣] والميرة وخلص جماعة من الأسرى، وأسَرَ من وجده فيها وهرب صاحبها»[٤].

وبعد أن تمكن تورانشاه من تحقيق أولى انتصاراته ببلاد النوبة، أرسل إلى صلاح الدين وأخبره بهذا الفتح، فهنأ الشاعر «أبو الحسن بن الذروي»[٥] صلاح الدين بقصيدة انفرد بها

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣١ ، طبعة دار الكتب .

(٢) العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٦٧ - ٦٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ،ج ٩، ص ١١٨ - ١١٩ . وانظر أيضا : ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢، ص ٧٩١؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٠ .

(٣) الكُراعُ : الخيل والسلاح . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٢، ص ٧٢) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣١ (طبعة دار الكتب) .

(٥) أبو الحسن علي بن يحيى المصري القاضي المعروف بابن الذروي الشاعر : كان شاعرا موصوفا بالإجادة والإحسان ، مدح الخليفة العاضد لدين الله والسلطان صلاح الدين وأخا الملك العادل . توفي بمصر في عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وكان يبلغ الأربعين عاما . والذَروي نسبة إلي ذروي قرية بصعيد مصر . (العماد الأصفهاني : خريدة القصر، ج ١ ، شعراء مصر ، ص ١٨٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٨٥ ؛ ابن سعيد : النجوم ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٤٦ ؛ الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٣ ، ص ١١٣) .

بها ابن أبى طى فقال: «وكتب (تورانشاه) إلى السلطان بذلك فأنشد أبو الحسن بن الذروى يهنئه بفتح إبريم قصيدة منها:

فقدّم العَزْم فذا مُبتَداه ... يقصر ملك الأرض عن منتهاه[1]

واسْحَب ذيول الجيش حتى أرَى[2] ... أنجمَه طالعةً عَنْ دُجاه

سواكَ من ألقى عصَاه بها ... قناعةً لمّا استقَرت نواه[3]

عليك بالروم وَ دَع صاحب ال ... باج[4] إذا شئت وتُورانشاه

فقد غدَت إبريم فى ملكه ... تُبرم أمراً فيه كبتُ العِداه

لابُدّ للنوبة من نوْبة ... تُرضى لسُخط الكفر دينَ الإله

تظل من نوبة منسوبة ... لعَزمة كامنة فى أناه

تكسو الغزاة القاطِنى أرضها ... ما نسجَتْ للحرْب أيدى الغُزاه

سودٌ وتحمرّ الظبا حولها ... كأعين الرّمد بَدَت للأُساه

أوْلا، فسُمرٌ[5] يحتميها القنا ... مثل دنَان[6] بزّلتها السُقاه لله

جيْش منك لا يثنى ... إلا بنصل دميت شفرتاه

---

(١) في طبعة « دار الجيل » : « يقصر عن ملك الأرض منتهاه » (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » : « حتى ترى » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » : « بواه » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » : « التاج » . (المصدر نفسه و الصفحة) . والمقصود بالباج : « البُجَا » . وموطنهم في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق ، فيما بين البحر الأحمر ونهر النيل ، وقاعدتهم مدينة « سَوَاكِنُ » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٢ هامش (١) طبعة دار الكتب ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « قمر » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .

(٦) دَنان : جمع مفردها الدَّن، وهو ما عظم من الرواقيد ، والراقود إناء خزف مستطيل مقير . والدَّن طويل الأسفل يُسَيَّع داخله بالقار، وقد نهت السيدة عائشة عن الشرب منه. (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٤١٨ ، ج ٥ ، ص ٢٨٣) .

ما بين عقبان ولكنها خيل وفرسان كمثل البزاه[١]

آساد حرب فوق أيديهم أساود الطعن، فهم كالحواه

تقلدوا الأنهار واستلأموا ال غدران[٢] فالنيران تجري مياه»[٣]

وبعد سيطرة تورانشاه على القلعة، أناب عليها أحد أتباعه، وظل واليا عليها لمدة عامين، ثم نجح ملك النوبة فى إعادتها لسيطرته مرة أخرى، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر تطور هذه الأحداث فقال: «ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان فى صحبته أمير يقال له «إبراهيم الكردي»، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم فأقطعه إياها وأنفذ معه جماعة من الأكراد «البطالين»[٤]، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا. وكانوا يشنون {الغارات}[٥] على بلاد النوبة حتى برّحوا بهم، واكتسبوا أموالا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم. واتفق أنهم عدّوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة { دندان}[٦]، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقى منهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوْها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملوكها[٧]»[٨].

---

(١) البُزاة : ضرب من الصقور . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠٢) .

(٢) الغُدْرَانٌ : جمع مفرده غدير . والغدير هو القطعة من الماء يغادرها السيل أي يتركها . (المصدر نفسه، ج ٤ ، ص ١١٠) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣١ ـ ٥٣٢ (طبعة دار الكتب) .

(٤) البطالون : من الأجناد و الأمراء ، هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها و إقطاعاتها ، نتيجة غضب السلطان أو كبر السن ، أو اضطرارا إلي الاعتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الانزواء و الابتعاد . (المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٣ ، هامش (٤)) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « الغارة » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .

(٦) في طبعة « دار الجيل » : « زيدان » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .

(٧) أورد كل من ابن كثير والمقريزي بعض الأحداث التي ذكرها ابن أبي طي في هذا النص،واتفقا معه في نفس الأسلوب.انظر:(ابن كثير:البداية،ج١٢،ص٧٩١؛المقريزي:السلوك،ج١،ق١،ص٥١).

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣ (طبعة دار الكتب) .

ثم تناول ابن أبى طى العلاقة بين تورانشاه وملك النوبة، وأوضح أن ملك النوبة كان يفضل الصلح معه، بينما أصر تورانشاه على استمرار القتال، وأرسل رسولا من جهته إلى ملك النوبة لتقصى الأحوال هناك، وأمدنا ابن أبى طى بما شاهده الرسول، و تضمن ذلك وصفا لكثير من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والدينية والمعمارية، فقال: «وانفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح ومع الرسول هدية، عبد وجارية. فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجى نشاب، وقال مالك عندى جواب إلا هذا. وجهّز معه رسولا يعرف «بمسعود الحلبي» وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبى مع الرسول حتى وصل «دنقلة»[1]، وهى مدينة الملك ، قال مسعود: فوجدت بلادا ضيّقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه إدامهم . ووصف مَلكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوما وهو«عريان»[2] قد ركب فرسا عريا وقد التفّ فى ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر ؛ قال: فأتيت فسلمت عليه فضحك، و تغاشى وأمر بى أن تكوى يدى فكوى عليها هيئة صليب وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفنى. قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها «أخصاص[3]».

كان هذا آخر ما وصلنا من كتابات المؤرخ ابن أبى طى عن أحداث سيطرة شمس الدولة تورانشاه بن أيوب على قلعة إبريم ببلاد النوبة، والتطورات التى أعقبت هذا الفتح

---

(١) دُنْقُلَةُ : ويقال لها أيضا دُمْقُلَةُ ، وهي مدينة كبيرة في بلاد النوبة علي النيل ، وبها منزل الملك، وكان أهلها في ذلك الوقت في شظف من العيش ، و الحبوب عندهم قليلة إلا الذرة ، وتكثر عندهم اللحم و الألبان والأسماك . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، ٤٧٨ ، ج ٥ ، ص ٣٠٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٦) .

(٢) كان من عادات أهل النوبة أن يسيروا عراة لا يلبسون ثوبا البتة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٠٩) .

(٣) أَخْصَاصٌ : جمع مفرده الخُصُّ . وهو بيت من شجر أو قصب . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ، ص ١١٠) . اتفقت كتابات المقريزي اتفاقا كبيرا مع رواية ابن أبي طي في معظم أجزاء هذا النص . انظر : (السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥١) .أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٣.

وقد رأينا من خلال مقارنة كتاباته مع غيره من المؤرخين مدى تميز هذه الكتابات لانفراده بذكر الكثير من الأحداث، وقد أشاد الدكتور جمال الدين الشيال بأهمية هذه النصوص، وذكر أنها تضمنت معلومات فريدة ومهمة جدا عن تلك الأحداث، ولهذا نقلها فى هامش تحقيقه لكتاب مفرج الكروب لابن واصل[1].

كما لاحظنا أيضا من خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى مع كثير من المؤرخين اللاحقين به، اتفاق الأحداث التى ذكرها بعضهم مع ما أورده ابن أبى طى، من ذلك بعض كتابات «ابن كثير» عن ولاية «إبراهيم الكردي» قلعة إبريم»، كذلك اتفقت كتابات «المقريزي» فى كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» مع معظم الأحداث التى ذكرها ابن أبى طى، بداية من الأسباب التى علل بها غزو تورانشاه لبلاد النوبة، حتى انتهاء الأحداث بذكر المراسلات بين تورانشاه و ملك النوبة، وقد أشرنا إلى هذا الاتفاق فى هامش كل صفحة.

أحوال مصر الداخلية:

لم تتوافر لدينا الكثير من كتابات ابن أبى طى عن تاريخ حكم صلاح الدين فى مصر، ووصلنا من كتاباته بعض الفتن و القلاقل التى واجهت صلاح الدين فى مصر، كما وجدنا له معلومة مهمة عن جهود صلاح الدين فى تعمير الأسطول المصرى، وأخيرا أشار ابن أبى طى إلى اختيار صلاح الدين ابن أخيه «تقى الدين عمر» ليكون نائبا عنه فى حكم مصر.

القلاقل الداخلية التى واجهت صلاح الدين فى مصر:

واجه صلاح الدين العديد من القلاقل الداخلية أثناء حكمه فى مصر، منذ أن تولى الوزارة الفاطمية فى عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م، واستمرت حتى بعد سقوط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م، وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع بعض

(١) ج ١، ص ٢٢٩، هامش (١).

الأمثلة التى توضح ما واجهه صلاح الدين من فتن و قلاقل، والجهود التى قام بها حتى يتخطى هذه الأزمات، وكان من هذه القلاقل:

ظهور تنظيم يهدف إلى إعادة الحكم الفاطمي٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م:

أقام مؤيدو الخلافة الفاطمية تنظيما لإعادة الخلافة مرة أخرى بعد عامين من سقوطها، واشترك فى هذا التنظيم عدد كبير من كبار المسئولين السابقين فى الخلافة، وقاموا بإعداد كل الأمور اللازمة لإعادة الخلافة، فعينوا - كما ذكر «العماد الأصفهانى و ابن الأثير» - الخليفة والوزير والحاجب والداعى والقضاة، كما عملوا على إنجاح هذا الأمر بطلب المساعدة من دول خارجية، فاتصلوا بالصليبين فى «صقلية»، وفى مملكة بيت المقدس فى الشام[1]. وقد اتفق ابن أبى طى مع العماد الأصفهانى وابن الأثير فى ذكر الأحداث الرئيسة فى هذا الموضوع، ومع ذلك لم تخل كتاباته من بعض النقاط التى انفرد بها، ومن ذلك ما ذكره عن أسباب قيام هذا التنظيم، والتى ألمح من خلالها إلى أن سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية التى عان منها مؤيدو الخلافة الفاطمية فى ظل الحكم السنى فى عهد صلاح الدين كانت من دوافع هذا التنظيم، فقال: «وفى هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذل والفقر»[2].

ثم ذكر ابن أبى طى الترتيبات الرئيسة التى قام بها مؤسسو هذا التنظيم، واتفق فيها مع العماد الأصفهانى وابن الأثير فقال: «ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا، وتجمعوا هم و جماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم و{قرروا}[3] أن يكاتبوا الفرنج، و أن

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق،ج١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ابن كثير:المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٩٦ ؛المقريزي:المصدر السابق، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٣؛ سعيد عاشور:الحركة الصليبية،ج ٢، ص ٥٧٤ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ (طبعة دار الكتب) .

(٣) ساقطة من طبعة « دار الجيل » . (أبو شامة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٠ (طبعة (دار الجيل) ؛ ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ طبعة (دار الكتب)) .

يثبوا بالملك الناصر»[١].

أوضح ابن أبى طى بعد ذلك أنه من الأسباب التى ساعدت صلاح الدين على اكتشاف هذا الأمر كان انضمام «ابن مصال» إلى التنظيم، ثم قيامه بإبلاغ صلاح الدين بما يدبرونه، وقد انفرد ابن أبى طى من بين كثير من المؤرخين بذكر ذلك، فقال: «وأدخلوا معهم فى هذا الأمر «ابن مصال» وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرروا معهم الوصول إليهم فى ذلك الزمان المقرر. فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه، ونكث فى اليمين وكفر عنها، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بجليه ما جرى»[٢].

وفى رأينا أن اشتراك ابن مصال فى مثل هذا التنظيم الذى يهدف إلى إعادة الحكم الفاطمى أمر مستبعد، ولا يمكننا أن نعتقد أنه انضم إليه عن اقتناع بأهدافه حيث كان ابن مصال واليا على الإسكندرية فى فترة حكم الخلافة الفاطمية فى مصر، وفى عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م وصلت حملة نور الدين محمود الثانية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، فقام ابن مصال - كما سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق - بتقديم المساعدة العسكرية لقوات شيركوه منذ وصولهم إلى الصعيد وفى أثناء بقاء الحملة فى الإسكندرية بقيادة صلاح الدين، وبالإضافة إلى ذلك فقد نشأت صداقة قوية بين ابن مصال وصلاح الدين، جعلت صلاح الدين يحزن عليه حزنا شديدا عند وفاته فى عام ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م، وقال عنه: «لا يخلف الدهر لى صديقا مثله بعده»[٣].

ومن هنا فمصداقية اشتراك ابن مصال بين أفراد التنظيم أمر غير منطقي، إلا إذا كان أظهر لهم أنه على خلاف مع صلاح الدين، لكى يقوم بعد ذلك بإبلاغه بأمرهم مثلما ذكر

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١ (طبعة دار الكتب).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٥٥.

ابن أبى طى فى هذا النص.

وعلى أثر إبلاغ ابن مصال صلاح الدين بأمر التنظيم، قام بالقبض على جميع المشتركين فيه، وانفرد ابن أبى طى مرة ثانية بالإشارة إلى بعض الأسباب التى دفعتهم إلى إقامة هذا التنظيم، فقال: «فأحضرهم واحدا واحدا وقررهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم»[1].

وقد أوضح «العماد الأصفهاني» أن صلاح الدين لم يقدم على اتخاذ قراره بشأنهم، وأوكل الأمر إلى الفقهاء الذين أصدروا فتوى بصلبهم[2]، واتفق معه فى ذلك ابن أبى طى فى هذا الرأى فقال: «فأحضر السلطان العلماء و استفتاهم فى أمرهم، فأفتوه بقتلهم و صلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم»[3]، وهناك رأى آخر أورده أيضا «العماد الأصفهاني»، أوضح فيه أن الفقيه الواعظ «زين الدين على بن نجا»[4]،هو الذى قام بإبلاغ صلاح الدين بأمر التنظيم،وأنه حصل فى مقابل ذلك على بعض الأملاك التى كانت تخص أحد المشتركين فى التنظيم[5]، وقد عرض ابن أبى طى أيضا هذا الرأى فقال: « وقيل: إن الذى أذاع سرّهم «زين الدين على الواعظ»، وطلب جميع ما «لابن الداعي»[6] من العقار والمال،

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦٢ (رواية العماد الأصفهاني) .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٦١ .

(٤) هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا زين الدين الأنصاري الدمشقي الحنبلي الواعظ : ولد بدمشق في عام ٥٠٨ هـ / ١٤ ـ ١١١٥ م ، درس الفقه والتفسير ، وأحب الوعظ و اشتغل به ؛ أرسله نور الدين رسولا إلي بغداد في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م . توفي في مصر في رمضان عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣م.(الذهبي:العبر،ج ٣ ، ص ١٢٦ ؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٤٠ـ٣٤١) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٣ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٤ـ ٢٤٥ ؛ النويري:المصدر السابق،ج ٢٨ ، ص ٣٦٨ ؛ ابن كثير : المصدر السابق،ج ١٢ ،ص ٧٩٧ ؛ المقريزي : المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٣ ـ ٥٤؛ الحنبلي:شفاء القلوب، ص ١٠٦.

(٦) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل : داعي الدعاة وقاضي القضاة ، كان يتمتع بمكانة كبيرة

والمال، فأعطاه جميع ذلك»[١].

وبعد أن كُشف أمر التنظيم أصدر صلاح الدين أوامره بصلب معظم المشاركين فيه، وقد أورد «العماد الأصفهاني» قائمة بأسمائهم، وكان من بينهم القاضي «أبو القاسم هبه الله بن كامل»، وهو أول من صلب[٢]، وقد اعتمد ابن أبي طي في جزء كبير من كتاباته على رواية العماد وصرح بذلك، فقال: «و كان الذين صلبوا «منهم»[٣]،«المفضل ابن كامل»[٤] القاضي»[٥]، «وهو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله ابن كامل، قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بفخر الأمناء، فكان أول من صلب فيما قاله «العماد»، وقد كان ينسب إلى فضيلة و أدب، وله شعر رائق فمن ذلك قوله في غلام رفّاء:

يـــا رافيًـــا خَـــرْقَ كـــلِّ ثـــوْبٍ ... و{مـــا رفـــا}[٦] حُبّـــهُ اعتِقـــادي

عَـــسَى بكـــفِّ الوصـــال تَرْفـــو ... مـــا مَـــزَّقَ الهَجْـــرُ مـــن فـــؤادي»[٧]

ومن بين الذين تم صلبهم: داعي الدعاة «ابن عبد القوي»، وقد ذكره أيضا العماد الأصفهاني في كتاباته[٨]، وعرض ابن أبي طي نفس روايته عنه فقال: «وابن

كبيرة في الخلافة الفاطمية ، ولهذا شارك في إنشاء تنظيم يهدف إلى إعادة الخلافة . (العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٦، ١٨٧) .

(١) أبو شامة : المصدر السابق ،ج١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ .

(٢) خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٦، ١٨٧ .

(٣) اختصر ابن كثير هذه الكلمة أثناء ذكره نص رواية ابن أبي طي ، وأضافها أبو شامة في كتابته لهذا النص . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢، ص ٧٩٧) .

(٤) في رواية « ابن كثير » . « الفضل ابن الكامل » . (البداية ، ج ١٢، ص ٧٩٧) .

(٥) انتهت هنا كتابات أبي شامة التي أوردها عن ابن أبي طي عن القاضي أبو القاسم هبة الله ابن كامل . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١) .

(٦) في رواية العماد الأصفهاني : « ويا رشا » . (خريدة القصر ، شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٧ . وانظر أيضا : أبو شامة : الروضتين ، ص ٥٧١ (رواية العماد الأصفهاني)) .

(٧) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٩٧ .

(٨) سنا البرق ، ص ٢٩ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

عبد القوي»[١] «داعي الدعاة، وكان يعلم بدفائن القصر فعوقب ليدل عليها ، فامتنع من ذلك فمات واندرست»[٢].

ومن بين الذين ذكرهم أيضا «العماد الأصفهاني» القاضي «العوريس»[٣]، والكاتب عبد الصمد[٤]، وأوردهم أيضا ابن أبي طي، كما أضاف بعض الأسماء الأخرى، فقال: «والعوريس وكان قد تولى {ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك}[٥]، و«شبرما» {وهو}[٦] كاتب السر، و«عبد الصمد» {الكاتب}[٧] {وهو}[٨] أحد أمراء المصريين، و «نجاح الحمامي»، و {رجل}[٩] {منجم نصراني أرمني كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم[١٠]}»[١١] ، ومن أهم أعضاء هذا التنظيم أيضا كان الشاعر «عمارة اليمني»[١٢]،

---

(١) انتهت هنا كتابات أبي شامة التي أوردها عن ابن أبي طي عن ابن عبد القوي الداعي .(الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١) .

(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٩٧ .

(٣) هو القاضي الأعز أبو محمد الحسن بن علي سلامة المعروف بالعوريس : تولى منصب « قضاء القضاة » في مصر في عام ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م ، بعد عزل القاضي هبة الله ابن كامل . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٨) .

(٤) سنا البرق ، ص ٢٩ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٥) في رواية ابن كثير : « وهو ناظر الديوان ، وتولى مع ذلك القضاء » (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٧)

(٦) إضافة في رواية « ابن كثير » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٧) في رواية « أبو شامة » : « القشة » . (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١) .

(٨) إضافة في رواية « ابن كثير » . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٧) .

(٩) إضافة في رواية « أبو شامة » . (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١) .

(١٠) في رواية « ابن كثير » . « ومنجم نصراني كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم » . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٧) .

(١١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١؛ ابن كثير:المصدر السابق،ج ١٢ ، ص ٧٩٧

(١٢) هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي اليمني الملقب نجم الدين : نشأ ببلدة « مرطان » نواحي « تهامة » ، واشتغل بتدويس الفقه بضعة أعوام في مدارس مدينة « زبيد» باليمن . بدأت

وأورده العماد الأصفهاني في مقدمة كتاباته عن هذا الموضوع[١]، وذكره أيضا ابن أبي طي.

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أننا كنا قد اعتمدنا في جمع كتابات ابن أبي طي عن هذا الموضوع على كتابات كلا من: «أبي شامة» و«ابن كثير»، وقد أشار أبو شامة في روايته عن ابن أبي طي إلى اشتراك عمارة اليمني فقط في هذا التنظيم، فقال: «وعُمارة اليمني الشاعر»[٢].

أما بالنسبة لابن كثير، فقد ذكر أيضا في روايته عن ابن أبي طي اشتراك عمارة اليمني في هذا التنظيم[٣]، ثم أورد بعد ذلك ترجمة لعمارة اليمني شملت أهم مؤلفاته، وعلاقته مع الخلافة الفاطمية، كما أشار ابن كثير في آخر الترجمة إلى بعض كتابات العماد الأصفهاني عن عمارة اليمني والتي كان قد ذكرها في كتابه «الخريدة»[٤].

وقد بدت لنا هذه الترجمة للوهلة الأولى أنها تكملة لنص ابن أبي طي، ولكننا لاحظنا بعد ذلك من خلال إشارة وردت فيها أنها ليست من كتاباته، وإنما تكملة لكتابات ابن كثير عن هذا الموضوع، حيث ذكر كاتب هذه الترجمة: «وكان عمارة شاعرا مطبقا بليغا

علاقته مع مصر عندما أرسله أمير مكة رسولا إليها في أعوام ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م و ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م، ثم استقر بها ومدح وزراء وخلفاء الدولة الفاطمية. وكان عمارة فقيها شافعيا، وشاعرا مجيدا، قتله صلاح الدين في رمضان عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م عندما اشترك في تنظيم لإعادة الحكم الفاطمي في مصر. (عمارة اليمني: النكت العصرية، ج ١، ص ٣٢، ٤١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٣١ ـ ٤٣٥).

(١) سنا البرق، ص ٢٩. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٣؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣.

(٢) انتهت هنا كتابات أبي شامة التي أوردها عن ابن أبي طي عن الشاعر عمارة اليمني. (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١).

(٣) المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٩٧ ـ ٧٩٨.

فصيحا... وله ديوان شعر مشهور، وقد ذكرته فى طبقات الشافعية»[١]، وقد استوقفنا هذا الكتاب لأنه لم يرد ذكره من قبل فى قائمة مؤلفات ابن أبى طى هذا من ناحية ومن ناحية أخرى من المستبعد أن يكون لابن أبى طى مؤلف تحدث فيه عن طبقات الشافعية لأنه كان شيعى المذهب، ولهذا صار لدينا اعتقاد شبه مؤكد أن هذا النص ليس لابن أبى طى، ثم صار مؤكدا بعد أن بحثنا بين مؤلفات ابن كثير ووجدنا من بينها كتاب «طبقات الشافعية»[٢].

ثم تناول ابن أبى طى موضوع هذا التنظيم مرة أخرى بشكل أكثر تفصيلا، من خلال عرضه نص رسالة صلاح الدين التى أرسلها إلى الملك العادل نور الدين محمود لإبلاغه بهذا الأمر. وهذه الرسالة من الوثائق المهمة التى حرص ابن أبى طى على تدعيم كتاباته بها، وأضفت على كتاباته أهمية كبيرة.

وكان «العماد الأصفهاني» قد أشار إلى هذه الرسالة، وذكر أنها كُتبت بخط «المرتضى بن قريش»، وأنها وصلت إلى دمشق يوم وفاة نور الدين محمود[٣]، ومن المحتمل أنه أورد أيضا نص هذه الرسالة ضمن كتابه «البرق الشامي»، و لم ترد إلينا بعد ذلك ضمن كتاباته لقيام «البنداري» باختصارها ضمن اختصاراته الأخرى لكتاب البرق.

وقد أورد ابن واصل أيضا نص هذه الرسالة، وهناك بعض «الملاحظات»[٤] التى تشير إلى أنه لم ينقلها من نص ابن أبى طى الذى وصلنا فى كتاب الروضتين لأبى شامة، حيث لاحظنا أن ابن واصل أضاف عدة كلمات فى نص الرسالة، كذلك علق أبو شامة على كلمة فى النص، ولم يشر ابن واصل إلى هذا التعليق، هذا فضلا عن بعض الاختلافات

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٩٧.

(٢) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٨٦؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٣١.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٢ (رواية العماد الأصفهاني).

(٤) سنة ضمن هذه الملاحظات أثناء عرض نص الرسالة.

الطفيفة بين بعض الكلمات، ولهذا فمن الراجح أن ابن واصل اعتمد على مصدر آخر، ومن المحتمل أن يكون نقلها عن العماد الأصفهاني، لأنه ذكر فى مقدمة كتاباته ما ذكره العماد عن كاتب الرسالة، ووصولها فى وقت وفاة نور الدين محمود[١]

ولقد اشتملت الرسالة على الكثير من التفاصيل حول التنظيم، ومن ذلك الجهود التى قام بها أعضاؤه من أجل ضمان نجاحه، وكيفية اكتشاف صلاح الدين لأمرهم .

بدأت الرسالة بمقدمة تبشر بنجاح صلاح الدين فى قمع هذا التنظيم. قال ابن أبى طى: «وقد كتب القاضى الفاضل إلى نور الدين كتابا شرح فيه قضية المصلّبين، فقال بعد مطلع الكتاب:» قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام و أهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى إظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجح، وأوائل كالليلة البهيمة إلا أنها انفرجت عن الصبح ؛ فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا، وضرب فى البلاد بجرانه بعد أن كان {الكفر}[٢] يتم عليه تخيلا عجيبا ؛ إلا أن الله سبحانه أطلع عَلَى أمرها من أوله، و أظهر على سرها من مستقبله ؛ والمملوك يأخذ فى ذكر الخبر و يعرض عن ذكر الأثر»[٣].

ثم تطرق صلاح الدين إلى الحديث عن دور القوات المصرية وأهل القصر فى الترتيب لهذا التنظيم، و أشار إلى ما عاناه منهم من قبل من حيلهم ومكرهم معه. فقال:

«لم {يزل يُتوسم}[٤] من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عُرى دولتهم، و خفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء وإن {تعدّت}[٥] بهم

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٢) في طبعة « دار الجيل» . « كالكفر». (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ (طبعة دار الكتب) .

(٤) في نص « ابن واصل » . « نزل نتوسم » . (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٨) .

(٥) في نص « ابن واصل » . « قعدت » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيرا ولا يستبعد منهم شرا كبيرا، وعيونه لمقاصدهم موكلة، وخطراته فى التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنة تمر، ولا شهر يكرّ، من مكر يجتمعون عليه، و فساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها»[1].

وعرض صلاح الدين بعد ذلك تفاصيل الدور الصليبى فى هذا التنظيم، ومن ذلك مراسلات المصريين إلى الملك عمورى الأول (١١٦٣ ـ ١١٧٤ م / ٥٥٨ ـ ٥٦٩ هـ) فى مملكة بيت المقدس الصليبية لطلب معونته، وقد وجدت هذه المراسلات صدى كبير لدى الملك لأهمية مصر بالنسبة لهم، فأرسل إليهم رسولا يدعى «جرج» لترتيب الأمر معهم، وهذا الجزء من الرسالة ذو أهمية كبيرة، حيث أضاف المزيد من تفاصيل الدور الصليبى فى هذا التنظيم، وكانت معظم المصادر العربية قد أشارت إليه باختصار، كما ذكرنا من قبل فى بداية عرضنا لهذا الموضوع.

قال ابن أبى طى: «وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى، التى يوسعون لهم فيها سبل المطامع، و يحملونهم فيها على العظائم والفظائع، و يزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد المخصوم ؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم ، إلا انهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سوّلت له نفسه الاستتار فى مراسلتهم، و التحيل فى مفاوضتهم، سير «جرج» كاتبه رسولا إلينا ظاهرا وإليهم باطنا، عارضا علينا الجميل الذى ما قبلته قط أنفسنا، وعاقدا معهم القبيحْ الذى يشتمل عليه فى وقته علمنا. ولأهل القصر والمصريين فى أثناء هذه المدد رسل تتردّد، وكتب إلى الفرنج تتجدّد. و المولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقابا مؤلما، ولا يعذبوا عذابا محكما ؛ و إذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال، أطلق سراحهم، و خلى سبيلهم،

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٣ .

{فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة}[١]، ولا {الرقة}[٢] عليهم إلا قساوة»[٣].

وتطرق صلاح الدين بعد ذلك إلى توضيح كيفية اكتشافه لأمر التنظيم، فأوضح أنه علم به من خارج مصر، و بالتحديد من عند الصليبيين أنفسهم ، حيث راسله من يشق به منهم، وأعلمه بالهدف الحقيقى من سفارة «جرج» فقام عندئذ بمراقبته، وتتبع أخباره من خلال بعض النصارى[٤].

قال ابن أبى طى: «وعند وصول «جرج» فى هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتله لا رسول مجاملة، وحامل بلّية لا حامل هدية ؛ فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصل مرة بالخروج ليلا، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدّامه، و بأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم. فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم»[٥].

وبعد أن تأكد صلاح الدين ـ من خلال أعوانه ـ بأمر هذا التنظيم، قام بالقبض على المتآمرين، وبدأ التحقيق معهم، فاعترفوا له بأشياء أخرى عن التنظيم لم يكن له بها علم من قبل قال ابن أبى طى: « و لما تكاثرت الأقوال وكاد يشّهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى و{قبضنا}[٦] على جماعة مفسدة، و{طائفة}[٧] من هذا الجنس متمردة. قد اشتملت على

(١) أضاف ابن واصل قبل هذه الجملة « وهؤلاء القوم » (مفرج الكروب ، ج ١، ص ٢٤٩).

(٢) في نص « ابن واصل » . « الرأفة » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤ .

(٤) تناول « ابن الأثير » في كتاباته ما جاء هنا في الرسالة من معرفة صلاح الدين بحقيقة نوايا رسول الملك عموري الأول من خلال الصليبيين أنفسهم ، وأوضح أنه علم بذلك بعد أن كان « زين الدين ابن نجا الواعظ » أبلغه بأمرهم أولا . (الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢٣ . وانظر أيضا : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٥؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٦٨).

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٦) في نص « ابن واصل » . « فقبضنا » . (مفرج الكروب ، ج ١، ص ٢٤٩) .

(٧) في نص « ابن واصل » . « جماعة » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

الاعتقادات المارقة، و السرائر المنافقة فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرّ طائعا عند إحضاره، و منهم من أقرّ{بعد}[1] ضربه[2]، فانكشفت أمور أخر كانت مكتومة، و نوب غير التى كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة فى المراد، متفقة فى الفساد»[3].

ثم عرض صلاح الدين تفاصيل الترتيبات التى كان قد أعدها أفراد التنظيم بشأن تعيين الخليفة الفاطمى الجديد والوزير، وأوضح أنه حدث اختلاف فيما بينهم حول هذه الترتيبات. وكان ابن الأثير قد أشار أيضا لهذا الخلاف[4]. قال ابن أبى طى: «ثم ذكر تفصيلا حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين فى ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيرا ؛ واختلف هؤلاء فى تعيين واحد من ولدين له. وأما بنو رزيك و{أهل}[5] شاور، فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض فى تعيين الخليفة»[6].

ثم أورد صلاح الدين فى رسالته إلى نور الدين محمود الخطة التى وضعها القائمون على التنظيم للاستيلاء على الحكم فى مصر، وأوضح أنهم كانوا قد وجدوا أن وقت خروجه للجهاد فى منطقتى «الكرك والشوبك» مناسبا لتنفيذ هذا المخطط، فراسلوا عندئذ الملك عمورى الأول[7]. قال ابن أبى طى: «وكانوا فيما تقدم، والمملوك على «الكرك»

---

(١) في نص « ابن واصل » . « عند » . (مفرج الكروب ، ج ١، ص ٢٤٩) .

(٢) أضاف ابن واصل بعد هذه الكلمة جملة « ولم يقم علي إصراره » .(المصدر نفسه و الصفحة) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٤) الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢٣ . وانظر أيضا : ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ .

(٥) في نص « ابن واصل » . « بنو » . (مفرج الكروب ، ج ١، ص ٢٤٩) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٧) كان صلاح الدين قد خرج لغزو الكرك والشوبك في شوال عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣م ، حيث كان اتفق مع نور الدين محمود علي أن يقوما بالغزو معا ، وقيل أيضا إنه خرج للغزو لتأمين طريق القوافل من الشام إلي مصر . (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٦٥ ؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢١ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٤٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٠) .

و«الشوبك» بالعسكر ، قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجى إلى «صدر» أو«أيلة» ثارت حاشية القصر وكافة الجند و طائفة السودان وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة. ولما وصل «جرج» كتبوا إلى الملك الفرنجى أن العساكر متباعدة فى نواحى إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق فى القاهرة إلا بعضهم وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده وبقى فى البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة»[1].

ثم أبلغ صلاح الدين نور الدين محمود بما علمه بشأن المساعدات الخارجية الأخرى التى حصل عليها القائمون على التنظيم، وأوضح أنه فضلا عن الوعد الصليبى لهم بمساعدتهم،قام هؤلاء المتآمرون بمراسلة«سنان بن سليمان»[2] زعيم الدعوة الإسماعيلية

(١) الشيعية فى الشام، لاتفاقه معهم من ناحية المذهب. وهذا الجزء من الرسالة ذو أهمية كبيرة، لأنه كشف النقاب حول تفاصيل هذا الموضوع، والذى لم تشر إليه كثير من المصادر العربية. قال ابن أبى طى: «وفى أثناء هذه المدة كاتبوا «سنانا» صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، و{أن}[3] ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، و{لا يجب}[4] به قعود عن نصرة ؛ واستدعوا منه من {يُتمّم}[5]

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥ .

(٢) هو أبو الحسن سنان بن سليمان الملقب راشد الدين : زعيم الدعوة الإسماعيلية الشيعية في الشام، وعرفت هذه الفرقة بالحشيشية لأن أتباعها كانوا يتعاطون الحشيش، وقد جاء سنان إلي الشام في عهد نور الدين محمود ، وظل حاكما في قلاع الإسماعيلية في الشام لمدة ثلاثين عاما خاض خلالها الكثير من المعارك مع نور الدين محمود ومن بعده مع صلاح الدين . توفي في عام ٥٨٨ هـ وقيل في المحرم عام ٥٨٩ هـ/ ١١٩٢م (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١، ص٢٤٩، هامش (٥) ؛ الذهبي: العبر ،ج ٣ ، ص٩٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم ،ج ٦، ص١١٧) .

(٣) في نص « ابن واصل » . « أنه » . (مفرج الكروب ، ج ١، ص ٢٤٩) .

(٤) في نفس النص . « يجب » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٥) في نفس النص. « يقم » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

على المملوك غيلة، {أو يبيت له}[١] مكيدة وحيلة «والله مِنْ وَرَائِهِم مُحِيطٌ»[٢]. وكان الرسول إليهم عن المصريين خال «ابن قرجلة» المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج[٣].

وبعد أن انتهى صلاح الدين من عرض كل الجوانب الموضحة لأمر هذا التنظيم، تناول فى ختام رسالته عن هذا الموضوع الإجراءات التى اتخذها مع المتآمرين والتى لم تتم إلا بعد سماعه فتوى العلماء بشأنهم. قال ابن أبى طى: «ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة، الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجّار؛ وشنقوا على {باب قصورهم}[٤]، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ؛ ووقع التتبع لأتباعهم، وشردت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلا د الصعيد. فأما مَنْ فى القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى يمضى فيهم، ولا رأي فوق رأى المولى، والله سبحانه مستخار، وهو المستشار وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضى الحدود بتحديده و رأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا {تنحسر}[٥] الأطماع عنها، فإنه {حبالة}[٦] للضلال منصوبة، وبيعة للبدع «محجوجة»[٧]»[٨].

---

(١) في نفس النص نص. « ويثب عليه » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٢) سورة « البروج » آية ٢٠. (أبو شامة : الروضتين ، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٥ ، هامش (٣)) .

(٣) المصدر نفسه و الصفحة (طبعة دار الكتب) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » . « أبواب قصورهم » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) ، وكذلك في نص « ابن واصل » . (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » . « تنحسم » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) . وكذلك في نص ابن واصل . (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٦) في نص « ابن واصل » . « قبلة » . (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٧) علق أبو شامة علي هذه الكلمة بقوله : « لعّلها محجوبة » . (الروضتين ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥) .

(٨) المصدر نفسه و الصفحة .

ثم تناول صلاح الدين فى نفس رسالته إلى نور الدين محمود موضوعا آخر يتعلق أيضا بنجاحه فى قمع فتنة داخلية وقعت فى الإسكندرية، قام بها «قديد القفاص» وكان يدعى النسب إلى الفاطميين. قال ابن أبى طى: «ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه، أطلَع البحث أن فيه داعية خبيثا أمره، محتقرا شخصه، عظيما كفره، يسمى «قديد القفاص»، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية قد فشت فى الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش {فيه}[1] يحملون إليه جزءا من كسبهم، و{النسوان}[2] يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهنّ ؛ ووجدت فى منزله بالإسكندرية عند القبض {له}[3]، والهجوم {عليه}[4]، كُتب {محرّرة}[5] فيها خلع العذار، و صريح الكفر الذى ما «عنه»[6] اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود{وكان يدعى النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه صغيرا ونشأ على الضلالة كبيرا}[7] وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره[8]»[9].

وهكذا نجح صلاح الدين فى عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م فى القضاء على تنظيم كبير كان يهدف إلى إعادة حكم الخلافة الفاطمية مرة ثانية فى مصر بعد عامين من سقوطها، كما نجح

---

(١) في نص « ابن واصل » . « فيها » . (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٢) في نص « ابن واصل » . « النساء » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٣) في نص « ابن واصل » . « عليه » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٤) في نص « ابن واصل » . « إليه » . (المصدر نفسه و الصفحة) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » . « مجردة » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) . وكذلك في نص « ابن واصل » . (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٦) أضاف ابن واصل بعد هذه الكلمة كلمة : « اندفاع » . (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٥٠) .

(٧) هذه الفقرة ساقطة من طبعة « دار الجيل » . (أبو شامة: الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١(طبعة دار الجيل) ؛ ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ (طبعة دار الكتب) .

(٨) أشار « المقريزي » إلى أن القبض عليه كان في خامس عشري رمضان عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م . (السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٤) .

(٩) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ (طبعة دار الكتب) .

فى القضاء على فتنة أخرى قامت فى ذلك الوقت بالإسكندرية، وقد تميزت كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع، بذكره لمعظم تفاصيله سواء فى كتاباته الخاصة التى اعتمد فى كثير منها على رواية المؤرخ العماد الكاتب الأصفهانى، أو فى تدعيم كتاباته بعد ذلك بعرضه لوثيقة مهمة أرسلها صلاح الدين إلى الملك العادل نور الدين محمود فى دمشق، تضمنت شرحا مهما لأحداث تلك الفتن.

ووصلنا أيضا من كتابات ابن أبى طى أحداث قلاقل أخرى داخلية، وقعت أحداثها فى صعيد مصر، وقد نجح الملك العادل - أخى صلاح الدين ونائبه فى مصر - فى قمعها فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وعرفت فى المصادر العربية باسم:

نوبة الكنز ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م:

عرض ابن أبى طى مقدمة الأحداث التى سبقت هذه النوبة بمزيد من التفاصيل، وانفرد بذكر تفاصيل تمرد قام به «عباس بن شاذي» فى مدينة قوص فى الصعيد، وهذه هى المرة الثانية التى يقوم بها بمثل هذه الأعمال، و كان ابن أبى طى قد أورد له أحداثا مشابهة فى قوص أيضا فى عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م، وأوردنا هذه الأحداث فى الفصل السابق، وفى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م عاود عباس بن شاذى هذه الأعمال مرة ثانية ونجح الملك العادل فى القضاء عليه وقتله. قال ابن أبى طى: «واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها «طود»[1] رجل يعرف بعباس ابن شاذى، وثار فى بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال ؛ واتصل ذلك «بالملك العادل سيف الدين أبى بكر ابن أيوب»، وكان السلطان قد استنابه بمصر فجمع له العساكر وأوقع به، وبدد شمله، وفض جموعه وقتله[2]»[3].

---

(١) طَوْدٌ : بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤،ص٤٦ ـ ٤٧)

(٢) عرض المقريزي في كتاباته نفس رواية ابن أبي طي عن تمرد عباس بن شاذي في قوص . انظر: (السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٧ ـ ٥٨) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ ـ ٦٠٢ .

ثم قام والى أسوان الملقب بكنز الدولة بجمع الكثير من العرب و العبيد بالصعيد، وزعم لهم - كما أوضح «العماد الأصفهانى و ابن شداد» - أنه سوف يعيد الدولة الفاطمية إلى حكم مصر وقام بقتل عدد من أمراء صلاح الدين، فخرج «الملك العادل» إلى مدينة طود، وقتل كنز الدولة فى صفر ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م، وانتهت بموته دولة الكنز بأسوان[١] أما ما أورده ابن أبى طى عن هذه الأحداث، فقد وصلنا منه كما يبدو لنا رواية مختصرة، اتفق فيها مع العماد الأصفهانى، فقال: «ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله»[٢].

جهود صلاح الدين فى تعمير الأسطول الحربى المصرى:

كان صلاح الدين قد اتجه إلى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وظل مقيما بها لمدة عامين، نجح خلالها فى ضم العديد من البلاد إلى أملاك الدولة الأيوبية[٣]، ثم قرر فى عام ٥٧٢ هـ / ٧٦ - ١١٧٧ م العودة إلى مصر لتفقد أحوالها، وخرج فى صحبته العماد الأصفهانى، فوصل إلى القاهرة قرب نهاية شهر ربيع الأول فأقام بها بضعة أشهر، ثم غادرها إلى الإسكندرية فى الثلث الأخير من شهر شعبان، وصام فى الإسكندرية بضعة أيام من شهر رمضان، وفى أثناء زيارته للإسكندرية أمر بتعمير الأسطول، ثم عاد إلى القاهرة وأكمل بها شهر رمضان[٤].

---

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٨٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٠ ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٧ - ٤٨ ؛ ابن كثير المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨١٢ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٢ .

(٣) سنوضح تفاصيل ذلك في الفصل الخاص بتوسعات صلاح الدين في الشام .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٥ ، ١٢٠ - ١٢١ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٨٩ - ٦٩٠ (رواية العماد) ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٣ ؛ الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

وقد انفرد ابن أبى طى بتفاصيل الإشارة التى جاءت فى كتابات العماد الأصفهانى عن قيام صلاح الدين بتعمير الأسطول، وأورد فى ذلك الكثير من المعلومات المهمة، فذكر الدافع الدينى الذى كان يبغيه صلاح من وراء هذا الأمر، ثم عرض لما قام به من تزويد الأسطول بالسلاح والآلات والقوات. ثم اختياره قائدا له وأوضح الصلاحيات التى منحها له صلاح الدين فقال: «ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها، رأى أنه لا يخْلِى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين،

فرأى الأسطول وقد «أخْلقت»[1] سُفُنه و تغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصُناع أشياء كثيرة. ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، ونقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه، و شحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب إلى سائر البلاد يقول، القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يُمنع مِنْ أخذ رجاله وما يحتاج إليه وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر، ويغزى إلى جزائر البحر[2]»[3].

نيابة تقى الدين عمر فى مصر بعد الملك العادل:

كان السلطان صلاح الدين عندما قرر الانتقال إلى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م، قد أناب عنه أخاه الملك العادل فى حكم مصر[4]، فظل نائبا عنه حتى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م، ثم انتقل - كما ذكر العماد الأصفهانى - إلى الشام ليتولى مدينة حلب التى بسط صلاح الدين سيطرته عليها فى ذلك العام، فخرج الملك

---

(١) أَخْلق الدهر الشيء : أبلاه . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ، ص ١٩٥) .

(٢) أورد ابن كثير ملخصا لنص رواية ابن أبي طي عن تعمير صلاح الدين الأسطول الحربي في الإسكندرية . انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٢٢) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٨٩ - ٦٩٠ .

(٤) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٥٠ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨١٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٨ .

العادل من مصر فى شهر شعبان حاملا كل ما يلزمه للاستقرار فى الشام، فأخذ معه عائلته وأمواله، والتقى مع أخيه السلطان صلاح الدين عند حصن الكرك أثناء قيامه بحصاره، ثم أناب صلاح الدين فى مصر من بعده ابن أخيه الملك المظفر «تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب»، و أرسل معه إلى مصر القاضى الفاضل[١].

وقد أرجع ابن أبى طى فى روايته سبب انتقال الملك العادل من مصر إلى الشام إلى حاجة صلاح الدين إلى مشورته الدائمة فى كل أموره، لأن بعد المسافة بين مصر والشام كان يؤخر وصول رده على رسائله، وقد دعم ابن أبى طى رأيه هذا بعدة روايات لأشخاص كانوا معاصرين لهذه الأحداث، وحدثوه بها، وهم: قاضى اليمن «جمال الدين»، ووالده «أبو طى النجار». وقد يبدو ابن أبى طى مبالغا فى تعظيم دور الملك العادل فى حياة صلاح الدين، ولكنه أورد بعد ذلك فى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م مشاركة العادل السلطان صلاح الدين أثناء اجتماعه مع وفود العديد من الدول[٢].

قال ابن أبى طى: «كان السلطان يعظم الملك العادل ويعمل برأيه فى جميع أموره ويتيمَّن بمشورته، ولا يُعْلَم بأنه أشار على السلطان بأمر فخالفه. حدثنى قاضى اليمن «جمال الدين» قال: كان السلطان يجمع الأمراء للمشورة، فإن كان العادل حاضرا سمع من رأيه، وإن لم يكن حاضرا لم يقطع أمرا فى المهمات حتى يكاتبه بجلية الأحوال ثم يسمع رأيه فيها»[٣].

ثم قال: «وحدثنى أبى، قال: حدثنى جماعة قالوا: كان السلطان ليس له غناء عن العادل ولاعن رأيه. فلما حصل العادل بمصر وبعد عن السلطان هناك صارا السلطان

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٣ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩ ، ص ١٦٤ ؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص ٦٣ ؛ أبو شامة : المصدر السابق، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٦ (رواية العماد) ؛ ابن كثير : المصدر السابق، ص ٨٤٦ ؛ المقريزي : المصدر السابق، ص ٨٢ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٧ .

يتكلف فى مكاتبته بالأخبار، ويؤخر الأمور إلى أن يَردَ عليه جوابه، فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد، فلما حصر الكرك فى هذه السنة كاتبه بالحضور إليه بعياله، وأمواله وجميع أصحابه، وولى مصر تقى الدين»[١].

وقد منح السلطان صلاح الدين ابن أخيه «تقى الدين عمر» إقطاعا فى مصر يتضمن عدة بلاد، ذكر منها العماد الأصفهانى «الأعمال الفيومية» و«بوش»[٢]، و أضاف ابن أبى طى فى روايته بعض البلاد الأخرى، فقال: «وأقطع السلطان تقى الدين الإسكندرية و دمياط وجعل «الخاصة»[٣] البحيرة و الفيوم و بوش، ثم عوضه عن بوش سمنود و«حوف رمسيس»[٤]»[٥].

وقد كانت ولاية تقى الدين عمر مصر نيابة عن عمه صلاح الدين، آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن تاريخ مصر الداخلى فى عهد صلاح الدين، وقد أمدتنا هذه الكتابات بمزيد من التفاصيل المهمة حول بعض القلاقل الداخلية التى واجهت صلاح الدين فى القاهرة والإسكندرية و أسوان، كما أبرزت كتاباته جهود صلاح الدين فى تعمير الأسطول الحربى فى الإسكندرية، كذلك كانت كتاباته عن أسباب انتقال الملك العادل من مصر إلى الشام ذات طابع منفرد لاعتماده على آراء بعض المعاصرين لتلك الأحداث، وفى المجمل كان لابن أبى طى بصمة واضحة فى كل هذه الأحداث ميزت كتاباته، وجاء أسلوبه متفردا و مستقلا فى كثير من الكتابات، كما سبق أن أوضحنا.

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ . وانظر أيضا : المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٢ .

(٣) صبيان الخاص : أو « الخاصكية » كما عرفوا في زمن القلقشندي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) هم جماعة من أخصاء الخليفة ، عددهم نحو خمسمائة (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٧) .

(٤) حَوْف رمسيس : من أعمال البحيرة . (القلقشندي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٠٢) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٧٠ .

ثانيا: كتابات ابن أبى طى عن تاريط حكم الدولة الأيوبية فى اليمن (٥٦٩-٥٧٨ هـ/ ١١٧٤-١١٨٢ م)

كان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخى الملك الناصر صلاح الدين، قد توجه على رأس حملة لغزو اليمن فى عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤، ونجح فى بسط سيطرته على معظم بلاده، واستمرت ولايته هناك حتى عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م، ثم انتقل فى ذلك العام إلى بلاد الشام، ثم إلى مصر، وظل بها حتى توفى فى عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م، فتولى أخوه «سيف الإسلام طغتكين بن أيوب» حكم اليمن فى عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م.

وهذه الموضوعات تركزت حولها الكتابات التى وصلتنا من تاريخ ابن أبى طى عن حكم الدولة الأيوبية فى اليمن، وتميزت بعض منها بكثير من التفاصيل التى أنفرد بها.

وقد اعتمدنا فى جمع هذه الكتابات على ما أورده أبو شامة من كتاب ابن أبى طى الذى خصصه لدراسة السيرة الصلاحية.

حملة شمس الدولة تورانشاه إلى اليمن

توافرت لدى تورانشاه العديد من الأسباب التى شجعته على غزو اليمن فى عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م، تعلق بعضها بطبيعة شخصيته، والبعض الآخر بما وجده من مساندة من خارج اليمن ومن داخلها، كما كان غزوها هاما لإضافة أملاك جديدة إلى الدولة الأيوبية وأيضا للحفاظ على هيبة الخلافة العباسية.

فبالنسبة لطبيعة شخصية تورانشاه، فقد أوضح «العماد الأصفهاني» أنه كان قد اشتهر عنه الجود والكرم، وكان دخله فى مصر لا يفى بكل احتياجاته، ووجد أن ملكه لليمن

يوفر له ما يحتاجه من المال[١]، وقد أيد ابن أبى طى هذا الرأى، واتفق فيه مع العماد الأصفهانى، فقال: «كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريما جوادا، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوّته، ولا ينهض بمروّته»[٢].

كما وجد تورانشاه تشجيعا كبيرا من الشاعر «عمارة اليمني»، وكان مقيما فى

مصر فى ذلك الوقت، فقام - كما ذكر العماد الأصفهانى وابن الأثير[٣] - بدور هام فى حثه على غزو اليمن. وأوضح أيضا ابن أبى طى هذا الدور، واتفق معهما فى عرضه له، وأبرزته كتاباته، فقال: «وكان قد انتظم فى سلكه «عُمارة» الشاعر، وكان من أهل اليمن، و كان ورد مصر و مدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة و «مدحه»[٤]، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن، و كثرة أموالها و خيرها، و ضعف من فيها، و أنها قريبة المأخذ لمن طلبها»[٥].

كما وجد تورانشاه تشجيعا آخر من داخل اليمن، من خلال أحد الأشراف بها، وكان قد اختلف مع ملك اليمن فى ذلك الوقت وهو «عبد النبى بن مهدي»[٦]، فراسل لذلك

---

(١) سنا البرق، ص ٢٤،اختصار البنداري. وانظر أيضا: المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٢.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٤ - ٢٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٢٣٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٧٣؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٥؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٢.

(٤) أورد بعض المؤرخين نماذج من شعر عمارة الذي مدح وحث فيه تورانشاه علي غزو اليمن. لمزيد من التفاصيل انظر. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٣٨ - ٢٤٠).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٢.

(٦) عبد النبي بن المهدي علي بن المهدي: لم تحدد المصادر العربية تاريخ ولايته، و ضمت سيرته الكثير من الأعمال الغريبة، فقيل أنه قام ببناء قبة عظيمة علي قبر أبيه، وأمر الناس بالحج إليها حاملين الأموال، فجمع من ذلك أموالا لا تحصي، ومن لم يزورها قتل ومنعهم من حج بيت الله. وكان

تورانشاه وحثه على غزوها. و قد انفرد ابن أبى طى بذكر هذا السبب بين كثير من المؤرخين فقال: «ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له «هاشم بن غانم» وأطمعه فى المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبى كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم»[1].

وهناك بعض الأسباب الأخرى لغزو تورانشاه لليمن، يتعلق أحدها بأهمية

التوسعات الخارجية للدولة الأيوبية فى ذلك الوقت، وتتمثل هذه الأهمية - كما أوضحها ابن الأثير - فى رغبة صلاح الدين الأيوبى فى إضافة المزيد من البلاد إلى أملاك الدولة الأيوبية خوفا من قيام الملك العادل نور الدين محمود بغزو مصر. كما أضاف ابن الأثير وابن شداد سببا آخر لغزو تورانشاه اليمن، وهو الحفاظ على هيبة الخلافة العباسية، حيث كان «عبد النبى بن مهدي» قد قام بقطع الخطبة العباسية فى «زبيد» وخطب بها لنفسه[2].

ولهذه الأسباب قرر تورانشاه غزو اليمن، وبدأ فى اتخاذ الخطوات اللازمة لهذا الأمر، وكان أهمها أخذ موافقة أخيه الملك الناصر صلاح الدين. قال ابن أبى طى فى ذلك: «فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه، فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه فى دخول اليمن، فأذن له[3]»[4].

مذهبه التكفير بالمعاصي، وقتل من خالف اعتقاده كما قام بسبي الحريم، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقدون في الأنبياء، ثم تمكن « تورانشاه ابن أيوب » من قتله في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م بعد دخوله اليمن. (أبو الفداء : المختصر، ج ٣، ص٣٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٢٦٨ - ٢٦٩).

(١) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٢ ؛ ابن شداد : النوادر، ص ٤٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٤٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٠٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٥ ؛ المقريزي : المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٢.

(٣) اتفق المقريزي مع ما ذكره ابن أبي طي في هذا الجزء. (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣).

(٤) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

وعندئذ بدأ تورانشاه فى إعداد القوات اللازمة للغزو، فقام - كما أوضح ابن الأثير - بتجهيز ما يلزمه من الإمدادات الغذائية والسلاح والآلات وتجنيد القوات[١].

وقد أمدنا ابن أبى طى بالمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، وانفرد بذكر الإمدادات المالية والعسكرية التى وفرها له صلاح الدين، فقال «: وأطلق له مُغل قوص «سنة» وزوّده فوق ما كان فى نفسه، واصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجا عمن سيره من «حلقته»[٢]، وسار فى البر والبحر، فى البر العساكر

وفى البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات»[٣].

وكان تورنشاه قد خرج من مصر فى شهر رجب عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، ووصل أولا - حسب رواية كل من العماد الأصفهانى وابن الأثير - إلى «مكة المكرمة»، ثم اتجه نحو اليمن، فنزل على مدينة «زبيد[٤]»[٥]. وقد أتفق ابن أبى طى معهما فى ذكر المراحل الأولى من حملة تورانشاه فقال: «فوصل إلى مكة، شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا ، ثم خرج متوجها

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٢ وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٢) أجناد الحَلْقة : هم الطبقة الثانية من الأجناد بعد المماليك السلطانية ، وهم ذو أعداد كبيرة وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين ، بواسطة النزول عن الإقطاعات . ولكل أربعين منهم مقدم حكمه عليهم في وقت خروج العسكر فيكون مواقفهم معه. (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ - ١٦) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٤) زَبيد : مدينة مشهورة باليمن ، أحدثت في عهد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣١) .

(٥) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٢ . وانظر أيضا : ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٦ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٣ ؛ ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٣ .

منها إلى اليمن ؛ فوصل زبيد فى أوائل شوال، فنزل عليها»[١].

وعند وصوله إلى زبيد التقى مع الشريف هاشم الحسنى الذى كان راسله من قبل كما سبق أن أوضحنا، وانفرد ابن أبي طي بذكر هذا اللقاء فقال «: ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسنى وجميع الأشراف «بنو سليمان» فى جمع جم وعدد{كثير[٢]}»[٣].

وعند زبيد دارت أولى المعارك بين قوات تورانشاه وملك اليمن «عبد النبى بن مهدي»، وقد وصف ابن الأثير فى كتاباته تفاصيل القتال بينهما، وانتهى بانتصار تورانشاه، ودخل زبيد عنوة وأسر ملك اليمن عبد النبى بن مهدى، واستولى على الكثير من أمواله[٤]. وقد وصلنا من كتابات ابن أبي طي وصفا مختصرا لأحداث معركة تورانشاه حول زبيد، فقال: «فهجم زبيد و تسلمها، واحتوى على ما فيها، وقبض

على صاحب اليمن عبد النبى «أخي»[٥] ----------=

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ (طبعة دار الكتب) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » . « كبير ». (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٧) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٢ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٣ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ .

(٥) أختلف المؤرخون في تحديد درجة القرابة بين عبد النبي بن مهدي و علي ابن مهدي . فذكر البعض أنها « أخوة » ، وممن كتب هذا الرأي : « العماد الأصفهاني » و « ابن أبي طي » و« أبو شامة » و « ابن كثير » . وذكر البعض الآخر أن علي ابن مهدي « والد » عبد النبي ، وممن كتب ذلك « ابن خلدون » ، وهناك رأي أخير ذكر أن علي بن مهدي « جد » عبد النبي وكتب هذا الرأي « أبو الفداء » و « القلقشندي » . وهذا الرأي هو الأرجح في رأينا ، حيث كان « أبو الفداء » قد اعتمد في كتاباته علي تاريخ اليمن « لعمارة اليمني » ، وكان عمارة كما ذكر « الذهبي » معاصرا « لعلي بن مهدي » ولازمه لمدة عام. (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٥٢ (رواية العماد الأصفهاني) ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ؛ ابن الوردي : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦١ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٥ ؛ ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ ؛ القلقشندي : صبح الأعشي ، ج ٥ ، ص ٢٩) .

= «علي بن مهدى[١]»[٢].

ثم اتجهت قوات تورانشاه نحو مدينة «عدن»، و دارت المعارك بينه وبين واليها «ياسر بن بلال بن حرب»، و انتهت - كما ذكر العماد الأصفهانى وابن الأثير - ببسط سيطرته عليها، وولى عليها «عز الدين عثمان بن الزنجيلي»[٣]، ثم واصل سيره نحو الجبال وملك العديد من القلاع مثل «تعز»[٤]، و«الجند»[٥] وغيرها من المعاقل هناك[٦]. وقد تناول أيضا ابن أبى طى هذه المراحل من فتح اليمن، ولكنها وصلتنا مختصرة، واتفق فيما ذكره مع العماد و ابن الأثير، وانفرد بإشاراته عن وصوله إلى صنعاء، فقال: « ثم رحل إلى عدن وفى صحبته ابن مهدى، ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلى. ثم سار إلى

---

(١) علي بن مهدي : نشأ في قرية « العنبرة » بسواحل زبيد ، و كان والده « مهدي » رجلا صالحا ، ونشأ ابنه مثله ، وصار واعظا فمالت إليه القلوب ، فقام بحصار زبيد وقتل « فاتك ابن محمد » آخر ملوك « بني نجاح » ، وملك زبيد في رجب عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م ، وبقي في الملك شهرين وأحد وعشرين يوما ثم توفي . وحكم اليمن بعده ولده « مهدي بن علي » ، ثم ولده « عبد النبي بن مهدي » ، ثم أخوه « عبد الله » ، ثم « عبد النبي » .(أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٣٥ - ٣٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ؛ ابن الوردي : تاريخه ، ص ٦٠ - ٦١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشي ، ج ٥ ، ص ٢٩) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٣) هو فخر الدين عثمان بن الزنجيلي : تولي عدن في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م نيابة عن تورانشاه ، ثم غادر اليمن إلي الشام ، قبل ولاية سيف الإسلام طغتكين اليمن في عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٧ م ، و أسس المدرسة « الزنجيلية » خارج باب توما بدمشق وكانت له أوقاف مشهورة باليمن ومكة (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ١٩٢ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٣٩ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٠٤) .

(٤) تَعـزّ : قلعة عظيمة من قلاع اليمن .(ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٤) .

(٥) الجَنَدُ : أعظم أعمال اليمن ، بينها وبين صنعاء ثمانية و خمسون فرسخا. و الفرسخ : ثلاثة أميال . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ج ٢ ، ص ١٦٩) .

(٦) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ .

«المخلاف»[١] وتسلم الحصون التى كانت فى يد ابن مهدى، كتعزّ وغيرها ؛ وسار إلى «صنعاء» بعد فتح مدينة الجند وغيرها»[٢].

ثم تناول ابن أبى طى معركة تورانشاه عند صنعاء، و انفرد بما كتبه عنها فقال: «فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلا شيخا وامرأة عجوزا ؛ فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة»[٣].

ثم عاد بعد ذلك مرة أخرى إلى زبيد، وقد أوضح «العماد الأصفهاني» أنه عند وصوله إليها وجد نائبه فيها «سيف الدولة المبارك بن منقذ»[٤] قام بقتل ملك اليمن السابق «عبد النبى بن مهدي»، لأنه وجد أن المصلحة تقتضى ذلك فقتله أثناء انشغال تورانشاه فى فتح بقية حصون اليمن[٥].

وقد عرض ابن أبى طى نفس رواية العماد الأصفهانى عن هذا الإيضاح فقال: «فرجع إلى زبيد فوجد «ابن منقذ» قد قتل عبد النبى بن مهدى. وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الأمير «سيف الدولة المبارك ابن منقذ» وأمره بحمله ؛ فلما بعُد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة فى قتله، فقتله ابن منقذ بزبيد ؛ فلما بلغ شمس الدولة قتله

---

(١) المخلاف : اسم يطلق علي كور اليمن ، ويضاف إلي أسماء القبائل . فيقال مثلا : مخلاف زبيد...الخ . ونشأ هذا الاسم من استقرار أحد القبائل في موضع فتتخلف بذلك عن باقي القبائل . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٧ ، ج ٥ ، ص ٦٧ ـ ٧٠) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٣) المصدر نفسه و الصفحة .

(٤) هو أبو الميمون المبارك بن منقذ الملقب سيف الدولة مجد الدين : ولد بقلعة شيزر في عام ٥٢٦هـ/ ٣١ ـ ١١٣٢م ، وهو من الأمراء الصلاحية ، سار مع تورانشاه إلي اليمن ، وولاه زبيد ، وفي أثناء ولايته قتل بعض أهل اليمن وأخذ أموالهم فحبسه صلاح الدين وأخذ منه ثمانين ألف دينار . توفي بالقاهرة في رمضان عام ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م (العماد الأصفهاني: سنا البرق ، ص ٢٥ ؛أبو شامة : الروضتين ج١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص١٤٤ ـ ١٤٦) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٥. وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥١ .

استصوبه»[١].

ثم ختم ابن أبى طى كتاباته عن فتح تورانشاه لليمن بتوضيح خضوع باقى المناطق فيها لسيطرته، فقال: «ولما حصل شمس الدولة فى زبيد أنفذ إليه صاحب « طمار» وصالحه هو وباقى الملوك على أداء المال. ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها»[٢].

وهكذا نجح شمس الدولة تورانشاه فى بسط سيطرته على اليمن، وكما رأينا فقد أمدنا ابن أبى طى خلال كتاباته عن هذا الموضوع ببعض التفاصيل التى انفرد بها، وأهمها ما رواه عن المساعدة التى وجدها داخل اليمن من قبل أحد الأشراف بها، وهو الشريف هاشم الحسنى. ولعله قد تمكن من معرفة تفاصيل هذا الموضوع من خلال علاقته بأحد قضاة اليمن المعروف «بجمال الدين»، حيث أشار ابن أبى طى فى أحد رواياته أنه تحدث معه وأخبره ببعض التفاصيل عن تورانشاه[٣].

كما ظهر بصورة واضحة أن كتابات العماد الأصفهانى كانت من المصادر التى اعتمد عليها ابن أبى طى فى كتابة هذا الموضوع، وظهر ذلك من خلال الاتفاق بينهما فى بعض الأحداث التى ذكرها ابن أبى طى.

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

(٣) وردت هذه الإشارة في كتابات ابن أبي طي عن الدولة الأيوبية في مصر .

انتقال تورانشاه من اليمن إلي الشام
عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م

استمرت ولاية تورانشاه لليمن لمدة ثلاث سنوات تقريبا، ثم بدأ يفكر فى الانتقال إلى الشام، محل إقامة صلاح الدين، وقد علل ابن الأثير سبب انتقاله إلى شوقه إلى وطنه. وأوضح العماد الأصفهانى أنه كان قد أبلغ صلاح الدين بما عزم عليه وهو فى طريقه إلى الشام، وأرسل إليه كتابا يتضمن أبياتا من الشعر تحمل هذا المعنى[1]، وقد أتفق ابن أبى طى مع ما ذكره ابن الأثير، وانفرد بذكر سبب آخر فقال: «كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد، والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها. وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم و الأموال[2]»[3].

وقبل انتقاله إلى الشام، نجح فى القضاء على بعض الاضطرابات التى حدثت باليمن على أثر انتشار خبر سفره بين الناس، وقد أنفرد ابن أبى طى بتوضيح هذا الموضوع فقال: «وحكى أنه لما تحدث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له «عباس»، وكان صهر «ياسر بن بلال الحبشي»[4] صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٨ ؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص ٥٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٩ .

(٢) أورد ابن كثير نفس الأسباب التي أوردها ابن أبي طي عن سفر تورانشاه إلي الشام . (البداية، ج ١٢ ، ص ٨١٩) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٣ .

(٤) هو أبو الفرج ياسر بن أبي الندي بلال بن جرير المحمدي : عمل وزيرا للأخوين محمد وأبي السعود ولدي عمران بن محمد بن الداعي سبأ بن أبي السعود ابن زريع بن العباس اليامي، صاحب بلاد اليمن، و قتله شمس الدولة تورانشاه عند دخوله اليمن . (ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٨٦، ٣٨٩) .

عداوة، فافتعل عباس كتابا على لسان ياسر وزور عليه علامته إلى «زيد بن عمرو ابن حاتم» صاحب صنعاء يقول فيه: «إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، و سبب خروجه ضعفه عن اليمن ؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة و الرشوة {و يبقى}[1] لكم». واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلا على حصن يعرف «بالخضراء»[2] يحاصره. فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسرا وقال له: هذا خطك وعلامتك ؟ قال: كأنه هو. قال: {فبأي}[3] شيء استحققت منك هذا وقد قربت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك. وأراه الكتاب. فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه، ولا يعرفه، ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره. فلم يصدقه شمس الدولة، و أمر به فقتل صبرا بين يديه. فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال و حلفوا له على الطاعة»[4].

كما نجح أيضا تورانشاه قبل سفره إلى الشام فى بسط سيطرته على منطقة «حضر موت»[5]، كذلك قام باختيار نوابه فى مختلف أقاليم اليمن، وقد أمدنا ابن أبى طى أيضا بتفاصيل كل هذه الأمور قائلا: «ثم إن شمس الدولة خرج إلى «تهامة»[6]، و توجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ ؛ و عثمان ابن على الزنجيلى على عدن ؛ وتوجه إلى «حضر موت» ففتحها، واستناب عنه بها رجلا كرديا

---

(١) في « طبعة دار الجيل» . « يبقي » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٩) .

(٢) الخضراء : حصن باليمن في جبل وَصاب من عمل زبيد . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٧٦) .

(٣) في « طبعة دار الجيل» . « بأي » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٩) .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٣ - ٦٦٤ (طبعة دار الكتب) .

(٥) حَضْرَمَوْت : ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٠) .

(٦) تِهَامَة : تقع في الجزيرة العربية ، وهي أحد أقسامها الخمسة التي تتكون من : تهامة ، الحجاز ، نجد ، العروض ، اليمن . (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٧) .

يسمى «هارون» وكان مقامه «بشبام»[١]، واستمر الكردى بها مدة. ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع، فقتل، وعاث هارون فى تلك البلاد واستقام أمره. و ولّى شمس الدولة ثغر «تعزّ» مملوكه «ياقوت» وجعل إليه أمر«الجند» وولّى قلعة «بعكر» مملوكه «قايماز»[٢]»[٣].

ومنذ انتقال شمس الدولة تورانشاه إلى الشام، لم يعد مرة أخرى إلى اليمن، حيث أنابه صلاح الدين فى حكم دمشق، و ظل مقيما بها حتى عام ٥٧٤ هـ / ٧٨ ـ ١١٧٩ م[٤]، ثم ولاه صلاح الدين الإسكندرية، فانتقل إلى مصر ـ كما ذكر العماد الأصفهانى ـ فى آخر ذلك العام، وظل واليا عليها حتى توفى فى المحرم عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠م[٥].

وقد أورد ابن أبى طى عنه ترجمة كبيرة أضاف فيها بعض التفاصيل عنه، ومنها توضح موقفه من ولايته للإسكندرية، وأسباب وفاته، ومكان مدفنه الأول، فقال: « كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة إلى الإسكندرية وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده «القولنج» فهلك به، ودفن بقصر الإسكندرية[٦]»[٧].

ثم نُقل تورانشاه بعد ذلك ودفن فى دمشق[٨]. وقد تميز تورانشاه بجوده وكرمه، حتى

---

(١) شِبام : مدينة تقع في حضر موت . (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٠) .

(٢) ألمح ابن كثير إلى ما ذكره ابن أبي طي عن بعض الترتيبات الإدارية التي أقرها تورانشاه في اليمن بقوله : « استناب علي بلاد اليمن من ذوى قرابته » (البداية ، ج ١ ، ص ٨١٩) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٤ .

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٨ ؛ الذهبي : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ٣٠٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧٨ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٦) تطابقت رواية « ابن كثير » مع كتابات ابن أبي طي في هذا الجزء (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٣٥)

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٥٦ .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٥٦ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٧٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٨٧ .

حتى أنه قيل انه توفى وكان عليه مائتا ألف دينار مصرية[1]، وذكر ابن أبى طى أيضا هذه الميزة وأضاف بعض الصفات الأخرى، كما عرض بعض أبيات من الشعر للشاعر «ابن سعدان الحلبي» فى مدح كرم تورانشاه، فقال: «وكان أحد الأجواد الكرماء الأفراد، شجاعا، باسلا، عظيم الهيبة، كبير النفس، واسع الصدر، مَمَدَّحا، فيه يقول «ابن سعدان الحلبي» من قصيدة:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر ... فإنهما فى الجود والبأس عبداه

وما حاتم مِمَّن يقاس بمثله ... فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه

ولذ بُذراه مستجيرا فإنه ... يجيرك من جور الزمان و عَدْواه

فلا تتحمل للسَّحائب مِنَّة ... إذا هطلت جودا سحائب جدواه

ويرسل كفيه بما اشتق منهما ... فلليمن يمناه و لليسر يسراه[2]»[3]

ولاية سيف الإسلام طغتكين اليمن:

استقر رأى صلاح الدين بعد وفاة شمس الدولة تورانشاه فى عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م على إسناد ولاية اليمن إلى أخيه الأصغر «سيف الإسلام طغتكين»، وقد أوضح ابن أبى طى أن هذه كانت رغبة سيف الإسلام نفسه، ولهذا طلب من أحد الشعراء المعروفين فى حلب كتابة قصيدة تحث صلاح الدين على ولايته لها، وانفرد ابن أبى طى بذكرها فقال: «كانت نفس سيف الإسلام طغتكين أخى السلطان، تشرئب إلى اليمن من حيث مات أخوه «شمس الدولة» ويشتهى أن يصير إليها فأمر «ابن سعدان الحلبي» أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنفاذ سيف الإسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التى يقول فيها:

---

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥٢ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص ٣٠٤ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٤٠٤ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٦

(٢) تطابقت رواية « ابن كثير » مع كتابات ابن أبي طي في هذا الجزء أيضا . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨٣٥).

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٥٦ .

جـرد لهـا الـسيف الـصقيل فتنـةً ... فالـسيف لا يـذخر إلا للفـتن

شُـدَّ بـه أزر العـلا فإنـه ... نعـم فتـى مـن شرع الجـود وسـن

القائـل المـسمع فى مقالـه ... والـصادق النـدب الأمـين المـؤتمن

بـادى الفـؤاد كـيفما سـيرته ... حـن إلى دار الـوغى ثمـت أن

وفيها يقول:

يـا ابـن الكـرام النُجبـاء والـذي ... تلقـف العليـاء فيهـا ولقـن

لا تعـد عينـاك عـن الملـك فـما ... يخاطـب العليـاء إلا مَـنْ ومـنْ

قـد فـسد الملـك وقـد طـال العـدا ... واقتـسموا بعـدك أمـوال اليـمن

ثم قال ابن أبى طى: فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الإسلام فى المسير إلى اليمن»[1].

وفى حقيقة الأمر فقد كانت الفتن والاضطرابات التى عمت أرجاء اليمن عقب وفاة تورانشاه، وراء قرار صلاح الدين بإسناد ولاية اليمن إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين فى عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م، حيث عمل نواب تورانشاه فى اليمن على الاستقلال بولايتهم، مما أوشك على خروج اليمن عن حكم الدولة الأيوبية[2].

وقد توجه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن فى عام ٥٧٨ هـ/ ٨١ ـ ١١٨٢ م، ونجح فى قمع هذه الفتن[3]، ثم طالب صلاح الدين فى العام التالى بكتابة عهدا بولايته لها، فأرسله له، وقال ابن أبى طى فى ذلك: «ولما بلغ سيف الإسلام أن السلطان كتب «لتقى الدين»

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن أحوال اليمن قبل ولاية سيف الإسلام انظر. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٨٩ ـ ١٩١؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٥٣، ١٥٥).

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٩١ ـ ١٩٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥٦؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٤٦٦؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨٣٩؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٩١.

عهدا بولاية مصر، عتب لأجل ذلك، فكتب السلطان عهدا ببلاد اليمن جميعها»[1]. ولعل قلق صلاح الدين من نجاح سيف الإسلام فى إدارة اليمن كان وراء تأخير إرسال عهدا له بولايتها.

و قد كانت كتابات ابن أبى طى عن ولاية سيف الإسلام طغتكين اليمن بعد وفاة أخيه شمس الدولة تورنشاه آخر ما وصلنا من كتاباته عن تاريخ حكم الدولة الأيوبية فى اليمن.

وتميزت معظم كتاباته التى تناول فيها الاضطرابات التى قامت فى اليمن على أثر انتشار خبر سفر تورانشاه إلى الشام فى عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م، كذلك روايته عن وفاة تورانشاه فى الإسكندرية فى عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م، ورغبة سيف الإسلام فى ولاية اليمن من بعده، بما أورده من تفاصيل لم يذكرها كثير من المؤرخين. كما تمثلت أهمية كتاباته أيضا فى تدعيمه لها بالعديد من أبيات الشعر التى كتبها الشاعر الحلبى ابن سعدان

كذلك لاحظنا اتفاق كتابات المؤرخ «ابن كثير»، وتطابق بعض كتاباته مع رواية ابن أبى طى عن أسباب سفر تورانشاه إلى الشام، ووفاته فى الإسكندرية فى عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م.

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٧٠.

ثالثا: كتابات ابن أبى طى عن تاريط المغرب

حظى تاريخ المغرب باهتمام المؤرخ ابن أبى طى الحلبى، فأفرد لدراسته كتابا مستقلا، وهو بعنوان: «مختار تاريخ المغرب»[١]، كما تناول تاريخه ضمن مؤلفات تخصصت فى موضوعات أخرى، فأرخ للمغرب فى كتابه الذى ألفه لدراسة تاريخ معظم بلاد العالم الإسلامى، وهو: «معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء وذوى الرتب»[٢]، كذلك تناول ابن أبى طى تاريخ المغرب فى كتابه الذى ألفه عن السلطان صلاح الدين وهو: «كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين»[٣]، والذى اشتهر «بالسيرة الصلاحية»[٤].

وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن تاريخ المغرب بعض كتاباته عن تاريخ «دولة الموحدين»، ووجدنا هذه الأحداث ضمن كتابه «معادن الذهب»، وأوردها عنه المؤرخ «ابن الفرات»، كما وصلنا بعض كتاباته عن «فتوحات السلطان صلاح الدين فى المغرب»، ضمن كتابه الذى ألفه عن «السيرة الصلاحية»، وأوردها عنه المؤرخ «أبو شامة».

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ ؛ الطباخ الحلبي : أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٧٨ ؛ الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٣٦ ؛ C. Cahen : La Syrie de nord , p . ٥٦ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ ، أحداث عام ٥٠٣ هـ (مخطوط) ؛ C.Cahen : La Syrie de nord , p . ٥٥ ; une chronique , p. ٢٦١ ;

الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٣) الكتبي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ؛ الطباخ الحلبي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٧٨ ؛ الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ؛ نظير حسان سعداوي : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ٣ ؛ فتحية النبراوي : العلاقات السياسة ، ص ٩٩ ؛ C. Cahen : La Syrie de nord , pp . ٥٥-٥٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٩ .

كتابات ابن أبى طى عن تاريط دولة الموحدين بالمغرب

غطت الكتابات التى وصلتنا من تاريخ دولة الموحدين لابن أبى طى فترة هامة من تاريخ الدولة فى العقود الأولى منها، فتناول تاريخ «أبو عبد الله محمد بن تومرت»، الذى مهدت جهوده لقيام الدولة، وتاريخ خليفته «عبد المؤمن بن علي» الذى اتسعت فى عهده رقعة دولة الموحدين على أنقاض «دولة المرابطين» (٤٥١ ـ ٥٤١ هـ/ ١٠٥٩ ـ ١١٤٦/ ١١٤٧ م).

أولا: عهد أبو عبد الله محمد بن تومرت
(٥١٥ ـ ٥٢٤ هـ/ ١١٢١ ـ ١١٣٠ م)

سجلت كتابات ابن أبى طى أحداثا هامة شهدتها دولة الموحدين فى عهد مؤسسها أبو عبد الله محمد بن تومرت، وقبل عرضه لهذا الموضوع اهتم ابن أبى طى بتتبع أحوال ابن تومرت، وأمدنا بالكثير من التفاصيل حول أصله ونسبه ودراسته، والخطوات الأولى التى مهد بها لقيام الدولة.

أصله ونسبه ودراسته:

أشار ابن أبى طى فى مقدمة روايته عن هذا الموضوع فى أحداث عام ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ ـ ١١١٠ م إلى انتقال ابن تومرت من المغرب إلى المشرق فى رحلة للدراسة، وذكر وصوله إلى بغداد للتزود من علم الإمام «الغزالي»[1] فقال: «وفيها اجتمع أبو عبد الله بن

(١) هو أبو حامد محمد بن أحمد الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي: ولد في عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م بمدينة طوس، تلقي العلم علي علماء طوس ونيسابور، ثم بلغ مكانة كبيرة أهلته للتدريس في المدرسة النظامية في بغداد في عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م، ثم ترك التدريس بها في عام ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م، وسلك طريق الزهد، وسار إلي الشام في عام ٤٩٩ هـ/ ١٠٩٦ م وألف هناك كتابه

تومرت بالغزالى ببغداد»[١].

ثم أكد ابن أبى طى مرة أخرى فى أحداث نفس العام اجتماع ابن تومرت مع الإمام الغزالى فى بغداد، وأوضح أنه استشار الغزالى فيما كان يفكر فيه بشأن إقامة دولة جديدة فى المغرب، فقال: «وصار إلى بغداد، واجتمع بالغزالى، ففاوضه فيما يضمره من القيام بأمر الله تعالى، فاستصعب له الغزالى ذلك، وقال: لو أمكن... أنا عليه»[٢].

ومن خلال هذه النصوص يتضح لنا أن ابن أبى طى اتفق مع الرأى القائل بلقاء ابن تومرت مع الإمام الغزالى أثناء رحلته للدراسة فى المشرق، وقد ذكر هذا الرأى أيضا كثير من المؤرخين السابقين[٣] والمعاصرين[٤] واللاحقين بابن أبى طى[٥]، وهناك رأى أخر نفى وشكك فى حدوث اللقاء بينهما[٦].

أما بالنسبة للتاريخ الذى حدد فيه ابن أبى طى لقاء ابن تومرت والغزالى، فقد اتفق فيه مع المؤرخ ابن القطان (ت منتصف القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى) حيث أشار إلى حضور ابن تومرت مجلس الغزالى فى بغداد أثناء وصول خبر إحراق كتاب

«الإحياء»، وظل مقيما به لمدة عشر سنوات، ثم عاد إلي بغداد وسُمع منه كتاب الإحياء، ثم عاد إلي طوس، وتوفي بها في جمادى الآخرة عام ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢١٦ ـ ٢١٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ٣٢٥، ٣٢٧).

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٣.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٤.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٥٣.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٧٨ ـ ١٧٩؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص ٧٣.

(٥) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٧؛ ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، ص ١١١؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٤؛ السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا، ج ٣، ص ١٢ ـ ١٣.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٦.

«الإحياء» للغزالى فى قرطبة، وكان ابن القطان قد أوضح أن هذا الكتاب صدر لأمر بإحراقه فى بداية عام ٥٠٣ هـ[١].

وقد أكد أيضا بعض المؤرخين حضور ابن تومرت هذا المجلس وقت وصول نبأ إحراق كتاب الإحياء، لكنهم لم يذكروا تاريخا لهذا الحدث، كما أوردوا أيضا ما ذكره ابن أبى طى عن حديث ابن تومرت مع الغزالى بشأن إقامته دولة جديدة فى المغرب، وأوضحوا أن الغزالى دعا فى ذلك المجلس إلى تمزيق دولة المرابطين، وأن يتم ذلك على يد ابن تومرت[٢].

مما سبق يتضح لنا أن ما ذكره ابن أبى طى عن لقاء ابن تومرت والإمام الغزالى اتفق فى مضمونه مع آراء غيره من المؤرخين الذين ذكروا هذا اللقاء ؛ إلا أن ما ذكره ابن أبى طى عن حديث ابن تومرت معه بشأن إقامة دولة جديدة بالمغرب لا يتفق مع روايات غيره من المؤرخين. ثم تناول ابن أبى طى فى روايته بعد ذلك أصل ابن تومرت واتفق فيما ذكره مع معظم المؤرخين[٣] فقال: «وهذا هو صاحب دعوة عبد المؤمن، وكان أبو عبد الله محمد بن تومرت «الهرغي»[٤] من قبيلة بجبال المغرب يقال لهم «المصامدة»[٥]

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧٣ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المصدر السابق ، ص ٤٥٣ ؛ عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ ابن القطان : المصدر نفسه ، ص ٧٣ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١١ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٤ .

(٣) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٥ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٧ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٥ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١ .

(٤) نسبة إلى قبيلة هَرْغَة من بطون المصامدة . (ابن خلدون : تاريخه ، ج ٦ ، ص ٢٢٥) .

(٥) المصامدة : هم من ولد « مصمود بن يونس بربر » ، ويعدوا أكثر قبائل البربر، من بطونهم : « برغواطة » وهم كان لهم قبل الإسلام وفي صدره التقدم ، ومنهم : « غمارة » ، ومن بطونهم أيضا « أهل جبال « دَرَن » بالمغرب الأقصي ، وقبائل المصامدة بهذه الناحية كثيرة فمنهم : هرغة ، هنتاتة ، وتينملل ، ودُكالة ، ومنهم تأسست الدولة الموحدية ، ويجمع الكل جنس البربر ، من طرابلس

ينسبون إلى....»[١].

أما بالنسبة لنسب ابن تومرت فقد قيل أنه يمتد إلى بيت رسول الله (صلعم)، وأكد هذا الرأى بعض المؤرخين[٢] ومن بينهم ابن أبى طى فقال: «وكان أبو عبد الله بن تومرت هذا ينسب إلى الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما»[٣]، وهناك رأى آخر شكك فى هذا النسب لتأصيل نسبه البربرى[٤]، وقد حسم

«ابن خلدون» هذا الخلاف بقوله: «وعلى الأمرين فإن نسبة الطالبى وقع فى هرغة من قبائل المصامدة، ورسخت عروقه فيهم، والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم، وانتسب بنسبتهم وصار فى عددهم»[٥].

وولد «ابن تومرت» بمنطقة «سُوس»[٦]، وقد أوضح ذلك كثير من المؤرخين[٧]،واتفق معهم ابن أبى طى فقال: «وولد ابن تومرت المذكور بجبل

المغرب إلي أقصى سوس . (عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ؛ ابن خلدون : تاريخه ، ج ٦ ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٥) .

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ١ ، ج ١ ، ورقة ٤٣ .

(٢) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ؛ ابن القطان : المصدر السابق ، ص ٨٧ ـ ٨٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٧ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٣ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ١ ، ج ١ ، ورقة ٤٣ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١١ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ .

(٦) السُّوسُ : بضم أوله وسكون ثانيه ، يطلق هذا الاسم ـ كما يقول ياقوت الحموي ـ علي كورة بالمغرب عاصمتها « طنجة » ، وأيضا علي كورة أخرى تعرف « بالسوس الأقصى » عاصمتها « طَرْقَلة » ، وحدد ابن خلكان موقع جبل السُّوس في أقصى بلاد المغرب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٤٦) .

(٧) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ؛

السُوس»[١]

ثم تلقى «ابن تومرت» قسطا وافرا من العلم فى رحلته التى قام بها إلى المشرق فى مطلع القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى[٢]، واجتمع هناك بأئمة المذهب «الأشعري»[٣] من أهل السنة وأخذ عنهم[٤]، فلقى «أبو بكر الشاشي»[٥] فى بغداد، وأخذ عليه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين[٦]، ثم انتقل إلى الإسكندرية وحضر بها مجلس الشيخ «الطرطوشى[٧]»[٨].

وقد أكد ذلك أيضا ابن أبى طى فى روايته عن شيوخ ابن تومرت فقال: «وتفقه على

ابن القطان :المصدر السابق، ص ٩٠؛ ابن خلكان : المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦ ؛النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤، ص ٢٧٧ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ .

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ١ ، ج ١ ، ورقة ٤٣ .

(٢) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن القطان : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٣) الأشعرية : أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، وهم من الفرق الذين يثبتون لله تعالي صفات دلت أفعاله عليها مثل كونه عالما ، قادرا ، مريدا ، وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالي . للمزيد من التفاصيل انظر : (الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٩٢ ـ ١٠٣) .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ .

(٥) هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر أبو بكر الشاشي الفقيه : ولد في المحرم عام ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م ، وعمل بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد ، وكان أشعريا ، توفي في شوال عام ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م . (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٧٩) .

(٦) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٧) هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري الأندلسي الطُرطُوشى الفقيه المالكي : ولد في عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، تلقي العلم علي علماء الأندلس ، ثم رحل إلي بلاد المشرق ليتلقى المزيد من العلم ، كان إماما عالما ألف العديد من المؤلفات منها « سراج الملوك » ، وتوفي في جمادى الأولي عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م بالإسكندرية . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤) .

(٨) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٩؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ؛ ابن القطان : المصدر السابق ، ص ٩١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٧ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٤ .

مذهب «أبى بكر محمد بن .... «على مذهب الأشعري»[١]، وكان تفقهه ببلد الإسكندرية على الشيخ أبى محمد بن الوليد الفهرى «الطرسوسي»[٢]»[٣].

وفى أثناء رحلة ابن تومرت إلى المشرق صار فى عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ - ١١١٠ م - إلى دمشق، وقال ابن أبى طى عن ملخص رحلته إلى هناك : «فأنكر فيها بعض المنكرات، فطُلب، فهرب إلى حلب»[٤]، وقد أمدنا ابن أبى طى بتفاصيل وصول هذا الخبر إلى حلب، وانفرد بذكر الإجراءات التى اتبعت فى البلد للقبض عليه من قبل والى حلب الملك «فخر الملوك رضوان بن تتش» (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١١٣ م)، فقال: «حدثنى (أبى) ظافر قال: أعرف وقد غلقت أبواب المدينة بحلب وأبواب الجامع ونادى منادى من قبل الملك «رضوان» صاحب حلب: «من عرفنا برجل مغربى، طوال، «أثطازرق»، فى مقدم وجهه ضربه، فله كذا من المال»، واجتهدوا فى تحصيله فما وجد»[٥].

واتجه ابن تومرت فى رحلته أيضا فى نفس العام إلى مكة المكرمة وأخذ فيها أيضا ينادى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقد أشار ابن أبى طى إلى تفاصيل رحلته إليها فقال: «فرحل أبو عبد الله بن تومرت إلى مكة المشرفة، وأقام بها، فرأى ما الناس عليه من الجهل وإهمال السنة، فبدا منه أن أنكر ذلك، فناله ضرر أداه إلى الخروج عن مكة المشرفة، وكان إذا ناله ضرر خلط فى كلامه»[٦].

---

(١) لم يتضح لنا اسم هذا الفقيه الأشعري في مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات ، وقد وجدنا أن الفقيه محمد بن أبو بكر الشاشي - الذي ذكره عبد الواحد المراكشي كأحد شيوخ ابن تومرت - يتفق من حيث الاسم والمذهب مع ما ظهر لنا في المخطوط عن هذا الفقيه .

(٢) الطرطوسي : ذكر ابن أبن أبي طي الاسم هكذا ، وهو خطأ ، والصواب « الطرطوشي » كما ذكرنا في ترجمته في الصفحة السابقة .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ١ ، ج ١ ، ورقة ٤٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ورقة ٤٤ .

(٥) المصدر نفسه والورقة .

(٦) المصدر نفسه والورقة .

وقد أورد «ابن خلكان» أيضا رحلة ابن تومرت إلى مكة، واتفق مع ابن أبي طي فيما ذكره من تفاصيل الرحلة، وأضاف أنه درس هناك الحديث الشريف وأصول الفقه والدين[١].

ثم أورد ابن أبي طي بعد روايته عن رحلة ابن تومرت إلى مكة بعض أبيات من «شعر ابن تومرت»[٢]، تشير إلى رغبة ابن تومرت في إصلاح ما أصاب الأمة من فساد، فقال: «وكان كثيرا ما ينشد والشعر له:

درنى تقى النفس.... {لاءلبسن}[٣] لها درعاً وجلَبابا
والله لو مُكّنت مما تروم يدى ما كنتُ عن ضرر..... الزرى آبا
حتى أطهر دين الله من دنس وأوجب الحق للسادات إيجابا
واترك.... من.... منتشرا وصار... فى..... محرابا
وأملأ الأرض عدلا مثل ما ملئت جورا وافتح للخيرات أبوابا
واترك الحق يعلو فوق باطنه.... من ولاة الدين ركابا»[٤]

ثم ختم ابن أبي طي رحلة ابن تومرت في المشرق بقوله: «ولم يزل ابن تومرت ينتقل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى مصر»[٥].

وبعد أن أنهى ابن تومرت رحلته التي قام بها في المشرق للدراسة، والتي قضاها بين بغداد والشام ومكة ومصر عاد إلى المغرب، وتنقل بين كثير من البلدان والقرى به داعيا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد استجابت لدعوته بعض من هذه البلدان وكانت

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣ .
(٢) أورد ابن خلكان نماذج أخرى من شعر ابن تومرت . (وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٥٤ ـ ٥٥) .
(٣) هكذا كُتبت في مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات ، والصواب لألبسن .
(٤) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ١ ، ج ١ ، ورقة ٤٤.
(٥) المصدر نفسه والورقة .

النواة الأولى لدولة الموحدين.

جهود ابن تومرت لتأسيس دولة الموحدين:

وصلنا من كتابات ابن أبي طي بعض الملامح التي توضح جهود ابن تومرت التي مهد بها لقيام دولة الموحدين في المغرب، وبدأ هذه الكتابات بعرض تفاصيل تنقلاته بين بلاد المغرب لنشر دعوته. ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن ابن أبي طي اختلف مع كثير من المؤرخين في ترتيب تنقلات ابن تومرت في بلاد المغرب بعد عودته من رحلته في المشرق، حيث ذكر بعض المؤرخين أنه اتجه أولا إلى «المهدية»[١]، ثم واصل السير نحو «بجاية»[٢]، ثم إلى «ملالة»[٣] ثم بلغ «مراكش»، ثم «أغمات[٤]»[٥]، وبدا البعض الآخر رحلته من «بجاية»[٦].

أما بالنسبة لابن أبي طي فقد بدأ رحلة ابن تومرت في بلاد المغرب من ملالة، ثم أشار إلى وصوله إلى مراكش، ثم عاد وتكلم عن رحلته إلى المهدية وبجاية وأغمات.

---

(١) المَهْدية : بالفتح ثم السكون ، توجد في موضعين ، الأول في إفريقية ، والثاني اختطه عبد المؤمن ابن علي قرب سلا ، والموضع الأول هو المقصود هنا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٢٩) .

(٢) بجاية : بالكسر ، مدينة علي ساحل البحر بين إفريقية و المغرب . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٩)

(٣) مَلالة : بالفتح ثم التشديد ، قرية قرب بجاية علي ساحل البحر (المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٨٩)

(٤) أغمات : بالفتح ، ناحية قرب مراكش (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ ـ ٥٠ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٤ ـ ٥ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣ ـ ١٩ .

(٦) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ ـ ١٨٤ ؛ ابن القطان : المصدر السابق ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

وصول ابن تومرت إلى ملالة:

عرض ابن أبى طى تفاصيل رحلة ابن تومرت إلى ملالة عقب انتهاء كتاباته عن رحلته فى المشرق، والتى كان قد أورد معظمها ضمن أحداث عام ٥٠٣ هـ[١]، وفى الحقيقة فإن تاريخ عودة ابن تومرت إلى المغرب لم يتفق فى تحديدها كثير من المؤرخين

فقيل أنه عاد فى عام ٥٠٥ هـ/ ١١١١ - ١١١٢ م[٢]، وقيل فى عام ٥١٠ هـ/ ١١١٦ - ١١١٧ م[٣]، وقيل أيضا فى عام ٥١١ هـ/ ١١١٧ - ١١١٨ م[٤].

ثم عرض ابن أبى طى فى روايته عن وصول ابن تومرت إلى ملالة لقاء ابن تومرت مع أحد أهم أتباعه بعد ذلك وهو «عبد الله الونشريسي» الملقب بالبشير، واتفق بذلك مع «عبد الواحد المراكشي» فى تحديد مكان لقائه به[٥]. كذلك تناول ابن أبى طى الاتفاق الذى تم بين ابن تومرت والونشريسى حول تكتم الونشريسى لأمر فصاحته وعلمه بين الناس، وقد روى هذا الاتفاق أيضا بعض المؤرخين[٦]. قال ابن أبى طى: «ثم صار إلى المغرب، فأقام بقرية يقال لها «ملالة» وصاحب فيها رجلا يقال له «عبد الله الونشريسي» وكان معروفا عند الناس بالفصاحة والعلم فى تلك البلاد، فاءمره ابن تومرت أن... ويظهر البكم والطرش ويشعث خلقته لينكره من يعرفه، ويتم له ما يؤمله من ظهور اءموره، فأظهر

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ١ ، ورقة ٤٣ – ٤٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٨ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣ .

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٤) ابن القطان : المصدر السابق ، ص ٧٦ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٧ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٧ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٨٣ .

الونشريسى جميع ما امره حتى اءنكره أقاربه وسبه صاحبه»[1]. ثم أوضح ابن أبى طى بعد ذلك تفاصيل لقاء ابن تومرت مع «عبد المؤمن بن علي»، والذى سيقوم بدوز هام فى ترسيخ قواعد دولة الموحدين، وقد لاحظنا أن رواية ابن خلكان عن هذا الموضوع اتفقت اتفاقا كبيرا مع ابن أبى طى مما يوضح أنه اعتمد على نفس المصدر الذى أخذ عنه ابن أبى طى، ومن ناحية أخرى اختلف بعض المؤرخين مع ابن أبى طى فى تحديد مكان لقاء ابن تومرت وعبد المؤمن بن على وذكروا أنه كان فى ملالة[2].

قال ابن أبى طى: «ثم أن ابن تومرت استدنا إلى... رجالا من أهل المغرب أشداء أقويا أغمارا حتى صار فى سبعة نفر، ثم رحل بهم طالبا أقصى بلاد المغرب، وجعل يسير فى تلك البلاد..... يقيم فى كل بلد المدة اليسيرة حتى يكشف البلد، ولما دخل «أول المغرب الأقصى» وكان صعد إلى جبل.... لقى رجلا شابا قد بلغ أشده..... حال أصابعه متساوية فى الطول، فقال له ابن تومرت: ما اسمك ؟ فقال: «عبد المؤمن». وكان ابن تومرت قد تكهن وعلم من صفات القائم بهذا الأمر شيا يستدل به عليه، فوافقت هذه الصفات ما عند ابن تومرت من.. فقال له: ممن أنت ؟ فقال: من «كومية»، وهى قبيلة صغيرة بالمغرب، فقال له أين قصدك ؟ قال: بلاد الشرق لأجل طلب العلم. فقال له: قد ظفرت فاصحبنى، فصحبه حتى دخلوا مدينة «مراكش»[3]

ثم تناول ابن أبى طى مسير ابن تومرت نحو المهدية، وأورد رواية انفرد بها توضح جانبا من

لدور الذى قام به هناك، وكان كثير من المؤرخين قد ذكروا أن وصوله إلى المهدية كان

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ١ ، ورقة ٤٤ .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : (المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ ـ ٤٩) . عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٨٠ ـ ١٨٢ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٥ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٨ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٥ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص١٤ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ١ ، ورقة ٤٤.

فى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١م فى عهد «يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى (٥٠١ - ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ - ١١١٥ م)، وأنه واصل بها الدعوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن واليها استدعاه و أكرمه وسأله الدعاء له[١].

قال ابن أبى طى: «وفيها (٥١٤ هـ) صار ابن تومرت إلى مراكش مدينة أمير المسلمين، وكان دخل قبل دخول مراكش مدينة «المهدية»، وأنكر فيها أشياء ومال إليه قوم من وجوهها، فأمرهم أن يبنوا قصرا على..... وأن يعبدون الله فيه بالنكرة، فاجتمع مشايخ المهدية وفقهاؤها وعزموا على بناء ما أمرهم به والعبادة فيه بالنكرة، فقام إليهم رجل من كبار الفقهاء فقال: يا قوم نقيم ما أقمنا بالمهدية ونحن أهل العلم والدين يرجع إلينا الناس فى الفتاوى ويجئ رجل بربرى مصمودى فياءمرنا بالعبادة بالنكرة فنجيبه إلى ما ذكر، ونقبل ما أمر ونسارع إلى قبول قوله وأنكر على الناس فعادوا عما كانوا عزموا عليه وأبطلوه»[٢].

ثم ختم ابن أبى طى كتاباته عن تنقلات ابن تومرت فى بلاد المغرب بذكر وصوله إلى بجاية فقال: «ثم صار إلى بلد تعرف «ببجاية» فى أيدى «بنى حماد» من «صنهاجة»، وشرع ينكر على أهله شرب الخمر وكسر أبنيتها، وساعده على ذلك.... صاحب البلد وحمل إليه مالا فلم يقبله وأظهر الزهاد و التعفف. ثم صار إلى بلد «أغمات» وأظهر فيه الزهد و تدريس الفقه، وصار معه من المصامدة تقدير «أربعمائة» رجل، ثم صار إلى مراكش بعد ذلك يعنى فى سنة أربع عشرة هذه السنة»[٣].

ولم يصلنا بعد ذلك من كتابات ابن أبى طى عن عهد ابن تومرت سوى روايته عن

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٧ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٨ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٤ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣ .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤٢ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٢١ .

المعركة التى اشتهرت بموقعة البحيرة فى عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م، والتى دارت بين قوات دولة المرابطين وابن تومرت وانتهت بهزيمة قوات ابن تومرت، وفقد أحد أهم رجاله فى هذه المعركة وهو «عبد الله الونشريسي»، الذى اختلفت الآراء حوله فالبعض ذكر أنه قتل ومنهم ابن أبى طى[1]، والبعض الآخر ذكر انه فقد[2]، أما عبد المؤمن بن على فقد نجا مع عدد يسير من قواته.

قال ابن أبى طى: «أرسل أبو عبد الله بن تومرت «أبا عبد الله الونشريسي» وهو البشير فى عشرة آلاف فارس إلى جهة مراكش وكان أمير المسلمين قد جمع عساكره حول مراكش وبقى ابن تومرت فى الجبل فى..... وخادم كان معه يقال له.... وكان.... ولما حصل الونشريسى مقابل عساكر مراكش اندفعوا بين يديه، ووصل قلب أمير المسلمين من هول عظيم فلم يأذن لجيوشه فى قتاله، وأن بعض أمرايه ركب و حمل بغير إذن أمير المسلمين فكسر طرف عسكر ابن تومرت فركب أبو عبد الله الونشريسى وركب معه عبد المؤمن فقاتل البشير فقتل. وانحاز الناس إلى عبد المؤمن فدخل إلى بستان وعمل السيف فى أصحابه وكان يوما صايفا فعادت... وقد كلت. ولقى أمير المسلمين رجلا من التجار وقد دخل البلد فقال له التاجر: ألا أدلك على مكان عبد المؤمن هو فى المكان الفلانى، فأرسل أمير المسلمين رجاله جميعا و قال لهم: أحدقوا بالمكان الفلانى فإن عبد المؤمن فيه إلى الصباح و لا تناموا، فجأوا حتى أحدقوا بالمكان فضرب الله على أذانهم فناموا جميعا، فخرج عبد المؤمن ومن معه حتى لحقوا... وهى أقرب مدينة إلى الجبل، وأصبح أمير المسلمين فأرسل خلف عبد المؤمن فانهزم منهم، وكان العسكر لحق عبد المؤمن.... إليه بعض قرايب أمير المسلمين يقال له عمر بن..... به فرسه فى سطح فقتله بعض أصحاب عبد المؤمن فاشتغل به العسكر فنجا عبد المؤمن و أصحابه إلى الجبل، وصار إلى.... مدينة بنى أبى عبد الله، وعظم أمر عبد المؤمن عند أبى عبد الله المهدى ابن تومرت، وكان معجبا

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٨٨ .

(٢) ابن القطان : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٩ .

به، وكان... أنشد:

.....

الـــسن ضـــاحكة والكـــف مانحـــة والـصدر متـــسع والوجـــه منبـــسط»[١].

ثم ذكر ابن أبى طى بعد ذلك وفاة ابن تومرت فى عام ٥٢٢ هـ، وهذا التاريخ لم يوافقه فيه سوى «ابن خلدون»[٢]، بينما ذكر معظم المؤرخين أن وفاته كانت فى ٥٢٤ هـ بعد موقعة البحيرة بعدة أشهر[٣]، وعند ذكر ابن أبى طى خبر الوفاة ذكر تفاصيل أخرى عن موقعة البحيرة انفرد بها.

قال ابن أبى طى: «فى حوادث سنة اثنتين وعشرين و خمسمائة: «وفيها مات «أبو عبد الله بن تومرت» صاحب الدعوة بالمغرب، وكان «أبو عبد الله قد أرسل جيشا، وقدم عليه «عبد المؤمن» إلى قتال صاحب مراكش.

وكان جيشا عظيما لم يترك بعده عنده من أصحابه أحد، وبقى وحده بالجبل، واتفق ان كبس عبد المؤمن وقتل أكثر رجاله، واتصل الخبر بأبى عبد الله، وكان وعد أصحابه بملك مراكش، وأخذ أمير المسلمين فيقال أنه قال للدباغ قم فاقتلنى فجلس على وجهه حتى مات». ثم قال: «لما بقى وسنار الدباغ غلام المهدى محمد بن تومرت... ونعى إليهم المهدى، قال لعبد المؤمن: مد يدك أبايعك، فمد يده فبايعه، وسلم عليه بإمرة المؤمنين وبايعه الناس بعده»[٤].

ثم قال ابن أبى طى: «فى حوادث ٥٢٤ هذه السنة أن عبد المؤمن نزل على مراكش فى

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٩ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٧ .

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٢٢ .

ماية ألف فارس وتسعين ألف راجل، وذلك بعد أن خرج إليهم أمير المسلمين «على بن يوسف بن تاشفين» فى جملة كثيرة من عسكره ورعية البلد ووقفوا خيالهم على تعبية، و كانوا على باب من أبواب مراكش يقال له «باب الصالحة».

ولما اصطف الناس للحرب تقدم جماعة من رجال مراكش وسألوا أمير المسلمين أن يأمر لهم.... يستعينون بها على الحرب فأمر لهم بها، و أخرج لهم منها أحمالا كثيرة ووضعت خلف العسكر، وقيل للناس خذوا..... فظنت «المصامدة» أصحاب «عبد المؤمن» أن القوم قد انكسروا، و أنشدوا عليهم وأوصلوا الضرب والطعن إليهم. فكانت الهزيمة على أمير المسلمين وتشعث جيشه.

وطلبت الرجاله أبواب البلد وازدحموا فى باب يقال له «باب الشريعة»، فهلك فيه خلق عظيم بالزحمة و السيف، وانتهت هزيمة اليوم إلى موضع يقال له موضع «أم ربيع» على ثلاثة أميال من مراكش لا يدرون ما يصنعون، ولم يكن معهم إلا طبل واحد مربع فجعلوا يضربونه ثلاثة أيام ثم انصرفوا عايدين حتى وصلوا إلى بحيرة تعرف.....على ضفة واد يقال له..... مقابل باب إيلان فأقاموا هناك خمسة و أربعين يوما.

وفى مدة إقامة المصامدة بالبحيرة المذكورة أتاهم مدد من الجبال تقويت به أنفسهم، فلما أصبحوا أقدم عليهم خمسمائة فارس من «سجلماسة» وكانت بينهم وبين المصامدة حرب قتل فيها من المصامدة جماعة كثيرة، ثم انهزم الباقون.... إلى البحيرة، فلحقهم الخيل قبل دخولهم البحيرة، فتواقفوا هناك فقتل منهم أيضا جملة أخرى، ثم دخلوا البحيرة معتصمين..... و دغايرها، وقد بقوا فى مقدار ثمانين فارسا ومعهم عبد المؤمن، وكان راكبا على حصان له.... وبيده عدة من الحراب، فوقف على باب البحيرة فصد الناس عن دخولهم خلف المصامدة.

ونزل أمير المسلمين حول البحيرة، وجعل المصامدة يقاتلون من وراء الشجر إلى وقت الزوال. وهبت الرياح فأثارت غبارا شديدا، وهو عادة تلك البلاد، فرجع أمير المسلمين

إلى مراكش، ولما جن الليل على المصامدة هدموا حايط البحيرة وخرجوا منها إلى موضع يقال له.....، فتلقاهم هناك أهل إيلان، وبلغ ذلك أمير المسلمين فأمر باتباعهم، وانهد إليهم عسكرا كثيفا، وقدم عليهم رجلا من..... يعرف.....، فلما وصل إلى «بو عمروش» رماه احد المصامدة بحربة قتله، ورحلت المصامدة.... فى لحف الجبل، ووصلوا إلى سلمية»[1].

فتوحات تقى الدين عمر فى المغرب

اهتم ابن أبى طى فى كتاباته عن سيرة السلطان صلاح الدين بتتبع أخبار فتوحات الدولة الأيوبية فى بلاد المغرب. وقد انفرد ابن أبى طى بمعظم ما ذكره عن هذه الفتوحات، وتعد كتاباته عن هذا الموضوع من أوائل الكتابات فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، وقد لاحظنا ذلك من خلال مقارنة نصوص كتاباته مع غيره من المؤرخين المعاصرين له، وهذا زاد من صعوبة تحقيق كتاباته ومعرفة مصادره، وقد تبين لنا أن كتاباته عن هذا الموضوع كانت أساسا لكتابات كل من ابن كثير، والمقريزى بعد ذلك[2].

بدأ ابن أبى طى كتاباته بتوضيح تفاصيل غزو «بهاء الدين قراقوش» برقة، وقد لاحظنا أنه لم يكن دقيقا عندما ذكره أن بهاء الدين قراقوش هو الذى قام بفتوحات المغرب، حيث كان بهاء الدين من كبراء الأمراء فى دولة صلاح الدين، فهو الذى قام ببناء سور القاهرة وقلعة الجبل كما أوضحنا فى ترجمته فى الفصل الخاص بتاريخ الدولة الفاطمية، أما قراقوش المذكور هنا فهو«شرف الدين قراقوش» مملوك ـ « تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين» ـ وكان قراقوش من الأرمن ويقال له المعظمى والناصرى[3].

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) انظر : (ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٠ ، ٦٣ ـ ٦٤ ، ٦٧) .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩١ ـ ٩٢ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٩٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٣ .

قال ابن أبى طى عن مسير قراقوش إلى برقة فى عام ٥٧١ هـ: «ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه «تقى الدين» إلى الملك وجعل يرتاد مكانا يحتوى عليه، فأخبر أن قلعة «ازبري» هى فم درب المغرب، و كانت خرابا فأشير عليه بعمارتها، و قيل له متى عمرت وسكنها أجناد أقوياء شجعان مُلكت «برقة»[١]، وإذا مُلكت برقة مُلك ما وراءها. فأنفذ مملوكه «بهاء الدين قراقوش» وقدّمه على جماعة من أجناده ومماليكه، فصاروا إلى القلعة المذكورة وشرعوا فى عمارتها. واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدّثه عن بلاد «الجريد» و «فزان»[٢]، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغّبة فى الدخول إليها. فأخذ جماعة من أصحابه وسار فى حادى عشر المحرم من هذه السنة، فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام، و أشرف على مدينة «أوجلة»[٣]. فلقيه ملكها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوّجه بنته و يحفظ البلاد من العرب، وله ثلث ارتفاعها. ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف دينار لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألفا»[٤].

ثم قال ابن أبى طى: «وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها{الأرزاقية}[٥]، فبلغ أهلها صنيع قراقوش فى أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغّبوه فى المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم. فأجاب على ذلك، واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له «صباح» ومعه تسعة فوارس من أصحابه، فحصل لقراقوش أموال كثيرة. واتفق أن صاحب أوجلة مات، فقتل أهل أوجلة

---

(١) برّقـة : اسم صُقع كبير يشتمل علي مدن وقري بين الإسكندرية و إفريقية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٨) .

(٢) فزّانُ : ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب . (المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٦٠) .

(٣) أوْجَلَة : مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب . و أوجلة اسم للناحية واسم المدينة « ارزاقية » نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٦) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦ .

(٥) في طبعة « دار الجيل » . « الأزراقية » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٠) .

أصحاب قرقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، و استولى على البلد. ثم إن أصحابه رغبوا فى الرجوع إلى مصر وخشى قراقوش أن يقيم وحده فرجع وحده فرجع معهم. فلما حصل بمصر طاب له المقام و ثقل عليه العوْد، وزوجه تقى الدين بإحدى جواريه. وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها: أنا أمضى إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم »[1].

قال ابن أبى طى عن **أخبار قراقوش فى عام ٥٧٢ هـ**: «وفيها رجع قراقوش إلى «أوجلة» و تلك البلاد، فجمع أموالا ورجع إلى مصر، ثم أراد الرّجوع فمنعه «العادل»، ثم خلصه «فرخشاه» فرجع وفتح بلاد «فزّان» بأسرها »[2].

ثم عرض ابن أبى طى تفاصيل اتجاه قرقوش نحو مدينة طرابلس فى عام ٥٧٥ هـ فقال: «وفيها خرج» قراقوش التقوى «إلي» طرابلس المغرب « ففتح بلادا

وصلى حروبا مع «إبراهيم السلاحدار» الذى دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقى الدين، لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش فى تملك البلاد، ثم أصلح بينهما»[3]

ثم عرض ابن أبى طى فى أحداث عام ٥٧٦ هـ تفاصيل اتجاه قراقوش نحو مدينة قابس فقال: «وفى هذه السنة سافر قراقوش التقوى إلى «قابس»، فذكر محاصرته لجملة من القلاع، و قتله جماعة من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعة على حصن و أمر بقتلهم، وفيهم صبى أمرد، فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على ألا يقتله فأبى، فزادوه إلى مائة ألف فأبى وقتله، فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها و قدمها لقراقوش، فسأله عن الخبر، فقال: هذا الصبى الذى قتلته ولدى ولم يكن لى سواه، ولأجله كنت أحفظ هذه القلعة فلما قتلته علمت إن بقيت هذه القلعة فى يدى ومت صارت إلى

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩٢ .
(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٤٦ .

أولاد أخى وأنا أبغضهم، فرده إلى القلعة وأخذ منه أموالا»[١].

ثم تناول ابن أبى طى تفاصيل اتجاه قراقوش نحو إفريقية فى عام ٥٧٦ هـ أيضا فقال: «فيها سار قراقوش التقوى إلى إفريقية فأوغل فى بلادها وانتهب ما قدر عليه، و حارب عسكر «ابن عبد المؤمن» «بالقيروان» . ثم بلغه أن إبراهيم السلاح دار احتوى على أهل قراقوش وبلده، فرجع إليه فهرب إبراهيم وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم»[٢].

(١) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .